فاطمة شرف الدين

كايوتشينو

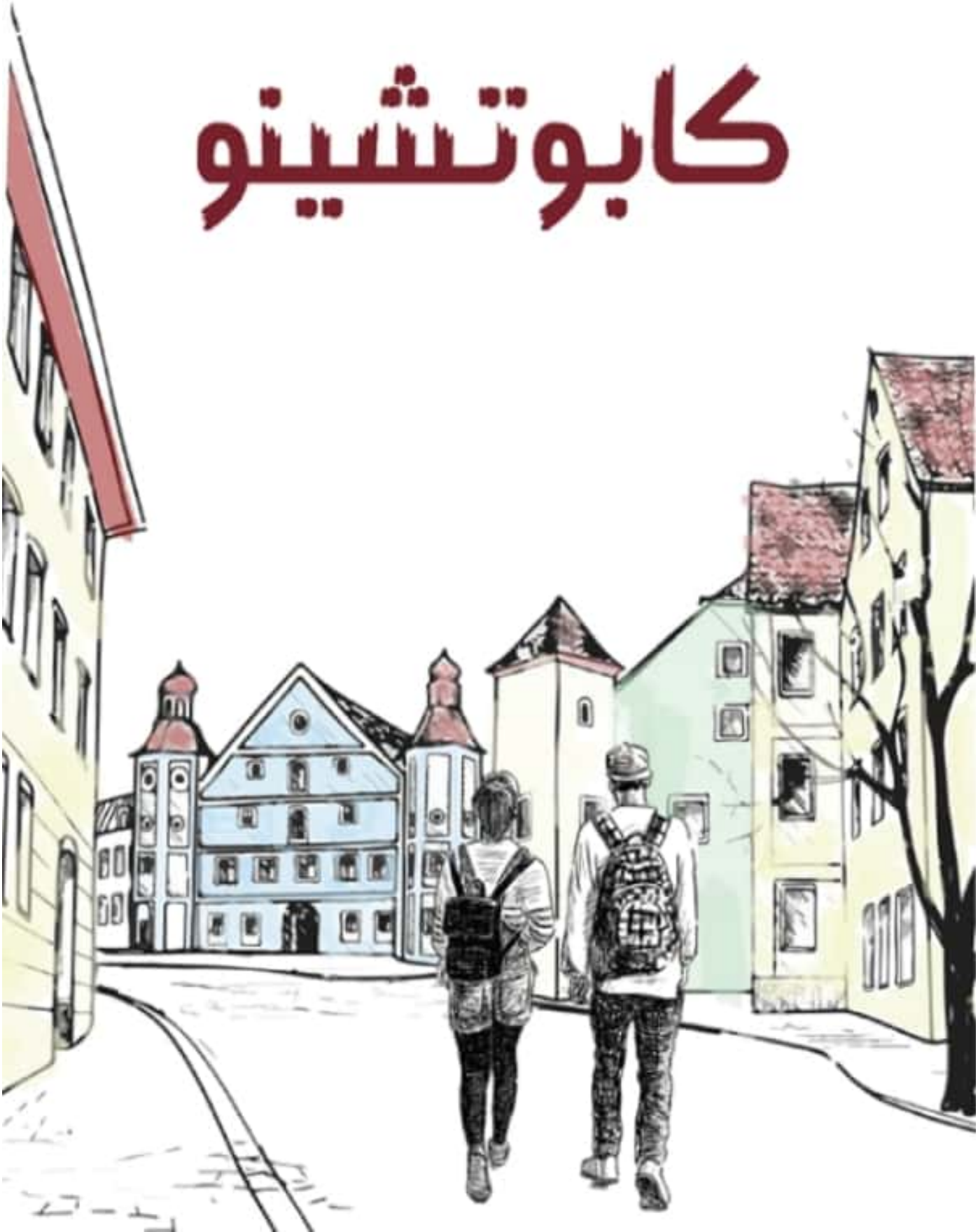

فاطمة شرف الدين كاتبة ومترجمة لأدب الأطفال والناشئة، نُشر لها حتى اليوم أكثر من 120 كتابًا. هي حائزة عدة جوائز ولوائح شرف عربيّة وعالميّة، آخرها جائزة بولونيا (Bologna Ragazzi New Horizon Award) لكتاب لسانك حصانك. تُنشَر كتبها في لبنان والإمارات ومصر وبلجيكا، وقد تُرجم بعضها إلى سبع عشرة لغة أوروبيّة وآسيويّة. تشارك في عدّة معارض كتب ومؤتمرات عربيّة وأوروبيّة عن أدب الطفل، كما تعطي ورش عمل للكتابة الإبداعية المتخصّصة بالأطفال والناشئة.

المزيد من المعلومات على صفحتها في الإنترنت:
www.fatimasharafeddine.com

فاطمة شرف الدين

كابوتشينو

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0106-1

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

شخصيّات هذه الرواية وأحداثها من نسج الخيال. فإن حصل أن تشابهت الأسماء بأسماء أناس حقيقيّين، يكون ذلك بمجرّد صدفة.

أتوجّه بالشكر الجزيل إلى منظّمة كفى وسلوى منيمنة وهالة البزري وتالة حسن وباسم حسن، لكلّ ما قدّموه من مساعدة في خلال بحثي وإنجازي لهذا العمل.

1

لينا

نفَسه عميق وثابِت، يتزامَن مع إيقاعاتِ الموسيقى الهادئة في الصالة. كالعادة، أجلسُ إلى يساره وخلفه بقليل، وأغشُّ بشقٍّ جفنيّ وفتحِ عينيّ قليلاً لأراه. عيناه مغمَضتان، ظهْره مُستقيمٌ مثل عصا الخيزران، شعْره الطويلُ الملفوفُ كالخواتِم يغطّي جبينه وأعلى الكتفَين. بدل التركيز على نفَسي كما المفروض، أؤخَذُ بمُراقبتِه، وبمُلاحظة عطِره الذي ينْسابُ إليّ مع كلّ نسمةِ هواء تدخلُ من الشبّاك المفتوح، وبالتفكير بطريقة للكلام معه اليوم بعد الصفّ. حالما نَنتهي، يسرعُ في لفّ فرشتِه وإعادتِها إلى الخِزانة، يضعُ حقيبتَه على ظهِره، ويخرجُ دون الالتِفات لتوديعِ أحد. لا أظنُّه لاحظَ وجودي بعد انتسابي الحديثِ للنادي. ربّما عليّ أن أسرعَ في اللحاقِ به... قد أجدُ طريقةً للكلامِ معه. بينما تجولُ هذه الأفكارُ في رأسي، ألَمْلِم أغراضي على عجلٍ، فأجدُ دفترًا في المكانِ الذي كانتْ تشغلُه حقيبتُه. فرصة مثاليَّة للمُبادَرة في الكلامِ معه. آخذُ الدفترَ وأنزلُ الأدراجَ بعجلَة. لقد اجتازَ الطريقَ إلى الناحِية الأخرى وصارَ على وَشكِ الصعودِ في سيّارةِ سرڤيس. "عفوًا، انتظِرْ"، أصرخُ وأنا ألوّحُ له بالدفترِ وأجتازُ الطريق.

"وقعَ هذا من حقيبةِ ظهرِكَ في الصالة. انتَبِه، لا يزالُ سحّابُها مفتوحًا." يخطفُ الشابُّ الدفترَ من بين يديَّ دون أن ينظُرَ في عينَيّ. أعرِّفُه بنفسي وأقولُ له إنّي في صفّ اليوغا معه.

"أنا أ... أنَس"، يهمسُ.

يضغطُ سائقُ السرڤيس زمّورَ سيّارتِه يستعجِلُه: "هل ستصعدُ يا ابني أم لا؟ عندي عمل." يعجّلُ في وداعي ثمّ يركبُ السيّارةَ ويبتعدُ.

لا أعرفُ ما هو الشيء الذي يشدُّني إلى هذا الشابّ؛ هو ليس وسيمًا بالمعنى التقليديّ لوسامةِ الشبّان، بل هو جذّاب، دقيقُ الملامِح، ويبدو لي، لسبب من الأسباب، غامضًا وحزينًا بعض الشيء.

2

أنَس

سببان يجعلان طَرقاتِ قلبي تتسارعُ وأنا أتناولُ دفترَ يوميّاتي من الفتاةِ. أوّلًا، هذا الدفترُ يحتوي على خصوصيّاتي التي لا يعرفُها أحد؛ فحظّي كبير أنّها أعادته إليّ فورَ أن وجدته. كنتُ سأقلقُ كثيرًا لو وصلتُ إلى البيتِ ولم أعثرْ عليه في حقيبةِ ظهري، ولكانتْ فضيحةٌ لو حاولَ أحدُهم أن يطّلعَ عليه. السببُ الثاني هو أنّي غير مُصدِّق أنّها هي التي بادرتْ في التواصلِ معي، أنا الذي منذ أن بدأتْ صفوفَ اليوغا أصنعُ السيناريوهات في رأسي كي أجدَ سببًا للحديثِ معها.

"أنا لينا المصري"، تقولُ في منتصفِ حبلِ أفكاري. ما أغباني. لم أعرِّفْ بنفسي. أفعلُ ذلك بسرعة، مُتلغثِمًا بلفظِ اسمي. يستَغجِلُني السائقُ، فأصافحُها بسرعة بيدي المتعرِّقةِ من خليطِ الحماسةِ والاضْطِراب. بعد أن أركبَ السرڤيس أتنبّهُ إلى أنّي لم أشكرْها. ألومُ نفسي غاضبًا وأنْوي الاعتِذارَ منها حين أراها في المرّة التالية. أدلّ السائقَ على وُجهَتي، "كورنيش المزرعة لو سمحت". تَنطلِق السيّارة مُخلِّفةً وراءها غيمةً سوداءَ من الدخانِ، ورائحةً كريهةً تَملأ رِئتَيّ. في السيّارة أجدُ نفسي أبتسمُ من وقت إلى آخر، ثمّ أتنبّهُ إلى ذلك

فأمحو البسمةَ مُستبدِلًا إيّاها بعبسة توحي بالجِديّة للسائق. فقد لاحظتُ أنّه يَحدِجُ انعِكاسَ صورتي عبر مرآتِه الأمامِيّة من وقتٍ إلى آخر مُستغرِبًا تعبيرَ وجهي البَشوش.

أصلُ، أدفعُ أجرةَ الطريقِ وأشكُره. أتّجِه إلى مَبنانا. أُحَيّي العمّ أبو عاصي بائعَ الخضارِ المشغولَ بإدخالِ صناديقِ البضاعةِ قبل إقفال المحلّ، والناطورَ مُعتزّ الجالسَ على كرسيِّه الخشبيّ وبيدهِ هاتفُه النقّال يلعبُ به كعادتهِ في كلِّ مساء بعد إنْهائهِ تنفيذَ طلبات السكّان. المصعَدُ في أعلى طابق وليس عندي صَبرُ انتظارِه. أصعَدُ أدراجَ بنايتِنا مُتعدّيًا درجتَين بدل الواحدة في كلّ خطوة من شدّةِ حماستي، مُستعجِلًا في الوصول إلى حاسوبي والدردَشة مع أحمد وعماد لأخبرَهما عن الفتاة. أحمد ابن تانت داليدا صديقةِ أمّي الأقرَب إليها، وعماد ابن عمّي صالح. منذ صغرِنا ونحن أعزُّ الأصحاب، نتواصَلُ باستمرار، بخاصّة في السنواتِ الأخيرةِ حين صار عندنا هواتفُ جوّالة نتواصلُ عبرها بالرسائلِ القصيرة لِتبادُلِ الأخبارِ والنكاتِ والصوَر، ولتحديدِ أوقاتِ وأماكنِ مَواعيدِنا. يدعونا أصدقاؤنا وأقارِبُنا بالفُرسان الثلاثة. فنحن أيضًا معًا في المدرسة الألمانيّة منذ أوائلِ الصفوفِ الابتدائيّةِ. وضعَنا أهالينا فيها لأسبابٍ مُختلفة. بالنسبةِ إليّ، أبي يريدُني أن أتعلّمَ اللغةَ الألمانيّة. فهو كان قد قضى عدّةَ سنوات في برلين للعمل ونحن نحملُ الجِنسيّة الألمانيّة. تعرّفَ إلى أمّي

هناك خلال سفرة قصيرة قامت بها لِتزورَ صديقتَها ياسمين التي تعيشُ في برلين أيضًا، يومَ دعاهُ زوجُ ياسمين إلى الغداء لمناقشةِ إغلاقِ شركةِ السيّاراتِ التي كانا قد فتحاها معًا لأعوام قليلة. أُعجِبَ أبي بأمّي يومَها، وفهِمتُ من الحديثِ الدائرِ أنّه عائدٌ عمّا قريب إلى لبنان ليفتحَ شركةً ويعملَ في بيروت. بعدها بأقلَّ من شهرَين، تلقَّتْ منه اتّصالًا في بيتِ أهلِها في منطقةِ الروشة، وحصلَ ما حصلَ.

أمام باب شقّتِنا، أتسَمَّرُ. أسمَعُ ما يَجري في الداخلِ حتّى قبل أن أفتحَ باب البيتِ. ينقبضُ قلبي. تزتَجفُ أحشائي. يضعدُ طعمُ المعدنِ المُرّ إلى فمي. آخذُ نفَسًا عميقًا، أزلِقُ المِفتاحَ في القُفل وألْبطُ البابَ.

3

لينا

ما إن أصعَدُ السيّارة حتّى تبدأ أمّي بأسئلتِها التي صرتُ أتوقّعُها كلّما خرجتُ أو قمتُ بنشاطٍ هنا.

"ها؟ أخبريني. هل تعرّفتِ إلى أحد؟"

"ماما، ليس بهذه السهولةِ نكتسبُ الأصدقاء."

أقولُ هذا وأنا أفكّر في الشابّ اللطيفِ صاحبِ الدفتر. نسيتُ اسمَه. لن أخبرَ أمّي عن وجودِه حتّى لا تكثِرَ من أسئلتِها. لا أعرفُ إن كان قد لاحظَ ارتباكي وأنا أتكلّمُ معه بالعربيّة. عربيّتي ثقيلةٌ لكنّي أريدُ أن أستخدمَها كي يتحسّنَ لفظي.

تُكملُ أمّي: "عليكِ أنتِ المُبادَرةَ بالتقرّبِ إلى الآخرين يا لينا. لن يُصبحَ عندكِ رفاقٌ ما دُمتِ تمضينَ معظمَ وقتكِ في البيتِ أمام الكمبيوتر تُدردِشين مع أصدقائكِ هناك"

"ماما!" أقولُ بعصبيّة، فتَسكُتُ. تعرفُ أنّ كلمةً أخرى منها سوف توصِلُ صَبري إلى النفادِ وصَوْتي إلى نَبْرة غير هادئة.

نبقى صامِتتَين إلى أن نصلَ إلى البيتِ. هو ليس بعيدًا، في منطقةِ فردان، وبإمكاني أن أعودَ من الحمرا حيث نادي اليوغا مشيًا. لكن أمّي تفضّلُ أن تأتيَ هي

وتأخُذَني بالسيّارة، وعن ذلك تقولُ: "لستِ مُعتادةً على شوارعِ بيروتَ بعد يا حبيبتي. هنا لا أرصفةَ للمَشي، واجتيازُ الطرقاتِ بحَدِّ ذاتِه مُجازَفة."

أحيانًا أشعرُ أنّها تُعامِلُني وكأنَّني في السادسةِ من عُمْري بدلَ السادِسة عشرة.

في البيتِ، تُلاقينا أختي نادية بخبرٍ يُفرحُني: "اتّصلَتْ خالتي أحلام، لقد عادوا من السفر."

أدخلُ غرفَتي وأُشغِّلُ الكمبيوتر. أجدُ رسالةً من نسرين، ابنة خالتي. كانت تُمضي عطلةَ الربيع مع أمّها في مدينةِ تولوز الفرنسيّة حيث يعملُ أبوها، وأنا سعيدة الآن بعودتِها. هي رفيقتي الوحيدة هنا، وأمّي تطمئنُّ حين أخرجُ معها فلا تتّصلُ بي عشر مرّات أو ترسلُ عشرين رسالةً هاتِفيّة كي تتأكّدَ من أنّي بخير. أتَسلّى مع نسرين كثيرًا، لكنّي لا أخرجُ معها في كلّ مرّة تدعوني للقائها مع أصدقائها الآخرين. لقد التقيتُ ببعضهم من قبل؛ كلّهم لطفاءُ معي، لكنّي حين أكونُ بينهم أشعرُ بأنّي دَخيلَةٌ على مجموعة مُتقارِبَة ومُتَجانِسة منذ أيّامِ المدرسةِ الابتدائيّة. أمّا زملائي في المدرسة هنا، فأنا لا أنسجِمُ مع أحد منهم. منذ اليوم الأوّل في المدرسة بعد انتقالِنا إلى البلدِ، شعرْتُ بأنّ الصفّ مُنْقَسِمٌ إلى مجموعات ليس من السهلِ خَرْقُها؛ في البداية حاولَ البعض التقَرّبَ مِنّي لمعرفةِ أصْلي وفَصْلي وديني وأسباب مجيئي للعَيش في لبنان. فضولُهم أزعجني فابتعدْتُ.

تقول نسرين في الرسالة: **لينا، اشتقتُ إليكِ كثيرًا. متى أراكِ؟** فأطبَعُ رَدًّا دون الإجابةِ عن سؤالِها: **لديَّ خبرٌ لكِ.** أفكّرُ في صاحبِ الدفتر. كيف نسيتُ اسمَه؟ لو أعرفُ اسمَه لَدخلْتُ الفايسبوك وبحثْتُ عنه. أعدُ نفسي بأنّي في المرّة المُقبلة سأستَخبرُ عن اسمهِ الكامل. ما إنْ أضغطُ زرَّ إرسالِ الإيميل المُختَصَر لنسرين، حتّى تدخلَ أمَي غرفتي وتسألَني: "هل تريدينَ مرافقَتي لزيارةِ بيتِ خالتكِ؟" عظيم. هكذا نَتبادلُ الأخبارَ أنا ونسرين وَجْهًا لِوَجه. خلال غيابها، لم أخرُج مع أحد، ولم أقُمْ إلّا بالقراءةِ والجلوسِ أمام الكمبيوتر والدردَشةِ عبر سكايپ مع أصدقائي في باريس. أخيرًا طبعًا، انتَسَبْتُ إلى صفّ اليوغا.

عند نسرين، بعد أن نجلسَ على انفراد، تقولُ بحَماسة: "قرأتُ رسالتَكِ بالإيميل. ما هو الخبر؟ هيّا انطِقي. شوَّقْتِني."

"اصبري يا بنت. أخبريني أنتِ أوّلاً عن رحلتِك. هل أحبَبتِ فرنسا؟"

تُخبرُني نسرين بالتفاصيلِ عن الأيّام التي قضَتْها في تولوز. تمدَحُ فرنسا والصبايا والشبابَ هناك، ثمّ تقولُ بلوْم: "لا أفهمُ كيف قرَّرتِ تركَ الحياةِ الكول هناك لتأتي وتعيشي في هذا البلدِ المِسكين. أنتِ فِعلاً مجنونة."

"أوه... لِمَ لا تفهمين أنّ الحياةَ هنا بالفعل أجملُ وأكثرُ نكهةً وطَعمًا من الحياة في أوروبّا؟ تعرِفين جيّدًا

أنّ زياراتِنا للبنان في صيف كلّ سنة، منذ وِلادَتي إلى حين انتقالِنا هذه السنة، كانت من أجملِ الأيّام."

تُلوّحُ نسرين بيدِها أمام وجهِها وكأنّها تطردُ ذُبابة كي تُفهِمَني أنّ كلامي لا يُقنعُها. "وأختُكِ، هل تَظنّ أنّ الدراسةَ في الجامعة هنا أفضلُ لمستقبلِها؟ هي المتفوّقة التي قُبلَت في جامعة ديكارت في باريس في عمر السابعة عشرة؟"

"أختي تعرفُ ماذا تفعلُ"، أقولُ. "يمكنُها السفرُ لمُتابعةِ دراساتِها العُليا فيما بعد. أمّا الآن فهي تريدُ أن تَختبرَ الحياةَ الجامعيّة هنا."

لا أعرفُ إن كانت حُجَجي مقنعةً بالنسبةِ لنسرين. هل بالغتُ في وصفي لحُبّ الحياةِ هنا؟ هي تعرفُ أيضًا أنّي في زياراتي السابقةِ للبنان، كنتُ أنتَقِدُ الكثيرَ من الأمور. التلوُّثَ، زحمةَ السير، الحرَّ والرطوبةَ، عدمَ احترامِ الناسِ لقوانينِ السيرِ أو عدمَ الالتزامِ بالدوْر...

أوقِفُ الجِدالَ لأنّي لا أريدُ أن أتعمّقَ فيه. لا ضرورةَ لذلك الآن. الأمورُ أعقَدُ ممّا تظنّ ابنةُ خالتي، وأنا لا أريدُها أن تعرفَ أكثرَ ممّا تعرفُ.

"ماذا أحببتِ هناك؟ هل تمكّنتِ من الخروجِ وحدَك ليلاً؟ هل شاهدتِ عروضًا جميلة؟" أسألُها لتغييرِ الموضوع. تتنهّد نسرين: "إيه... هناك الجوُّ نظيفٌ والسيرُ مُنظّم والطبيعةُ جميلة، ولا ننسَ أنّهم يصنعونَ أطيبَ كرواسان وتازت الفريز." تلْحَس نسرين شفتَيها استذكارًا للطعمِ الشهِيّ. حماسُها يضحكُني. تخبرُني عن

الأماكنِ التي زارتْها، وعن الحفلِ الغِنائيّ الذي كانت تنتَظِرُه منذ أكثرَ من ستّةِ أشهر. تُريني على هاتفِها أفلامًا قصيرةً صوَّرَتها في حفلِ المغنّي "ميكا"، وتُخبرُني بالتفاصيلِ عن المؤثِّرات البصريّة التي عُرِضتْ خلال الحفلِ. نقضي ساعات في تبادلِ الأخبار، لا يُقاطعُنا غيرُ طنّةِ رسالة واردة على الفايسبوك في هاتفي: **شكرًا لإعادةِ دفتري اليوم. أنَس.**

4

أنَس

يزدادُ صوتُ صُراخِه في الزاويةِ التي حَشَرَها فيها في المطبخِ. أركضُ وأنزَلِقُ بينهما لأحميَها من صفعة مُحتَملة ولأحاوِلَ الحَدَّ من ثوْرَتِه. يدفعُني بيدهِ اليُسرى وهو يهزُّ قميصَهُ الأبيض في وجهِها ويصرخُ: "حتّى الكيّ لا تُجيدينَه؟"

"أعطِني إيّاه فَأكويه ثانيةً. الأمرُ بسيط"، تردُّ بصوتٍ خافِت لِتَتجنَّبَ الزيادةَ في غضبهِ، وهي تُزيحُ عينَيها صوبَ الجدارِ كي لا تلتقيا بعينَيّ. أفكّرُ في مدى شُعورِها بالحَرَج في هذه اللحظات؛ أن تكونَ مُهاجَمة هكذا أمامَ ابنِها الذي طالما حاولتْ تَجْنيبَهُ مُعاملة أبيهِ السيّئة. يجيبُ على جُملةِ أمّي الأخيرةِ بدَفعَة قويّة تكادُ توقعُها أرضًا، وبـ: "لستِ فالِحةً في شيء!" أشعُرُ بقُشَعريرَة تبدأ من قِمَّة رأسي وتصُمُّ أذُنَيّ. أمْ أنّي أصبحُ أصمَّ أحيانًا كي لا أسمعَ قسوَةَ كلامِه معها أو صفْعَه لها؟

يَرمي قميصَهُ أرضًا، ويُكمِل بصوت أهدأ: "دعوْتُ شركائي في العملِ ونساءَهم إلى العشاء غدًا. حضِّري سُفرةً تليقُ بالضيوف. هؤلاء الناسُ مُهِمّون جدًّا، فلا تُبهدِليني أمامهم يا ليلى. أفهمْتِ؟"

في السابقِ كانتْ تعملُ عندنا امرأةٌ إثيوبيّة، لكن بعدما انتهتْ مدّةُ عقدِ عملِها وعادتْ إلى بلدِها، قرّرَ أبي أنّنا لسْنا بحاجة إلى عامِلة، فبإمْكانِ أمّي أن تتركَ وظيفتَها وتَتفَرَّغَ لأعمالِ البيتِ والطبخِ. لكن بعد عدّةِ نقاشاتٍ حادّةٍ بينهما، وبالرغْمِ من صُراخِه والشتائمِ والتعليقاتِ المُهينةِ التي تلقّتْها منه، أصَرَّتْ على عدمِ تركِ عملِها. لم يستَطِع إجبارَها حتّى بقوّتِه الجسَديّة. صارَت أمّي بعدها تقومُ بكلِّ أعمالِ البيت. تنهضُ باكرًا جدًّا في الصباحِ لتنظّفَ وترتّبَ قبل خروجِها إلى العمل، وحالما تعودُ تحضّرُ الغداءَ ليكونَ جاهزًا عند وصولِ أبي. يغرقُ هو في قَيلولةِ ما بعد الظهرِ الطويلة، فتعودُ هي إلى العملِ وتَرجِع إلى البيتِ قبل غروب الشمس، شرطٌ حاسمٌ وضعَه لها. أرى كم تتعبُ أمّي المسكينةُ في هذا النمطِ من الحياة، وفي أعماقي، أشعرُ بالذنب. لماذا لا أثورُ على أبي وأمنعُه من أذيّتِها وإهانَتِها؟ لماذا أخافُ منه إلى هذه الدرجة؟

بعد إصدارِ آخرِ أوامرِه، يتركُنا في المطبخِ واقفَين كالصنمَين، ويذهبُ إلى غرفة الجلوس. أسمعُه يَرمي بنفسه على كنبتِه ذات الخواصّ المتميّزة التي لا يجرؤ أحدٌ غيرَه على استخدامِها. أسمعُه يضغَطُ على زِرّ تدليكِ الظهر فيها، ثمّ على الزرّ الذي يسحبُ جزأها السفلي كي يمدّ ساقَيه. أسمعُ ارتِجاجَ ظهرِ الكنبة وتَنهيدةً طويلةً كأنّها تَنهيدةُ استراحةِ مُحارِب.

أغمرُ أمّي التي تغطّي وجهَها بكفَّيها وتبكي: "لماذا لا تتركينَه؟" أهمِسُ ما همستُ لها به عشَراتِ المرّات، منذ أن كبرتُ قليلًا وأصبحتُ أجرؤ على ذلك. أتذكّر وأنا أغمرُها يومَ زارَنا في المدرسة اختصاصيٌّ في الشؤونِ الاجتماعيّة ليُحدِّثَ الطلّابَ في اجتماعٍ كبيرٍ في قاعةِ الرياضةِ عن العُنْف الأُسَريّ وعن ضرورةِ إخْبارِ شخص كبير نَثِقُ به بأيّ شيء نجِدُه غيرَ عاديّ يحصلُ معنا في محيطِنا ويُشعِرنا بالسوء. كنتُ يومَها في التاسعةِ من عُمري، وكنتُ قد حَظيتُ بحصّة لا بأسَ بها من صَفَعات أبي ورَكَلاتِه. أذكُرُني جالِسًا بين زملائي، خائفًا من أن يُلاحِظَ أحدُهم القلقَ من عينَيّ أو يدَيّ المرتعِشتَين. يومَها لم أجرؤ على طرحِ أيّ سؤال، كنتُ فقط أدعو لِربّي أن ينتَهيَ هذا الاجتماعُ ونخرجَ لنكملَ وقتَ الفُرصة في الملعَب.

مُحارِب. غالبًا ما أراهُ هكذا. بيتُنا ساحةُ حَرب، أحيانًا باردة كلاميّة جارِحة، وأحيانًا أُخرى عنيفة فيها صراخٌ واستخدامُ الأيادي. لكنّ الحربَ عادةً تكون بين طرفَين. أمّي ليست طرفًا فعّالاً؛ هي فقط فَشَّةُ خُلقِ الطرَفِ الآخر. وأنا؟ خطُّ الدفاعِ أحيانًا. أتلقّى رَكْلَةً من هنا، صفعةً من هناك، صحنًا طائرًا ناحيَتي حين يكون أبي في قمّةِ غضبهِ منّي. لكنّ أمّي المتعثّرةَ في حظِّها من هذا الزواج، هي التي تتعذّب. لا أفهمُ ضعفَها نحوَه. كلّما سألتُها: "لماذا تتحمّلين منه كلّ هذا؟" تبدأ بإعطائِهِ الأعذارَ وبالدفاعِ عنه: "لا يقصد. ربّما هو عصبيٌّ اليومَ

بسببِ أمرٍ ما في المكتب." أو "أحبُّه"، أو "يحبُّني ودائمًا يندمُ بعد حفَلاتِ العُنف."

هي لا تُقنِعُني بكلِّ هذا الكلام. ما أشعرُ بهِ هو أنّها ضعيفةٌ نحوَه وليس عندها جرأةُ مغادرةِ هذا البيت. صحيحٌ أنّهُ في كلّ مرّة يعنِّفُها يَلينُ بعد أن يهدأ، ويبدأ بتغنيجِها وكأنّه يعتذِرُ منها:

"ماذا ستُطعمينَنا الليلةَ يا قمر؟"

"تعالي اجلِسي بجانبي."

"ما رأيُكِ أن نخرجَ ونتَمشّى على كورنيش البحر؟"

لكنّي لم أسمعْه ولا أيَّ مرّة يتلفَّظُ بكلمة اعتذار مباشر منها.

تَشُقّ أمَي بابَ غرفةِ أختي الصغيرةِ دارين لتتأكّدَ من أنّها لم تسمعْ ما حدَث للتوّ. تتنهّدُ حين تراها غارقةً في قراءةِ كتابِها. تدخلُ غرفتَها فيما بعد. ألحَقُ بها. أجِدها في حمّامِها أمام المغسلة. ترشُّ الماء الباردَ على وجهِها، تنشّفُه ثمّ تضَع الكريم على خدَّيها والكُحل على عينَيها والأحمرَ على شفتَيها. تُمَشّط شعرها الأشقرَ الطويلَ وتغقِدُه برَبْطة. تفعلُ كلَّ ذلك ببطء وكأنّها لا تريدُ أن تُنهِيَ ذلك لتعودَ وتجلِسَ بجانبِهِ. تنظرُ إليّ وتقول: "هيّا ابتسِم. لا تَعقِدْ حاجبَيك هكذا مثلَ البومة. على كلّ، أبوكَ بحاجة إلى علاج نفسيّ لضبطِ أعصابِه ورُدودِ فِعله." نفكّر أنا وهي في ما قالَته، وتِلقائيًا تنفَكّ تكشيرتي ونُطلِق نحن الاثنَين ضِحكَةً نكتِمُها بكفَّينا كي لا يسمعَنا، لمعرفتِنا حتّى باستحالةِ اقتراحِ الفكرة عليه.

أدخلُ غرفتي، أرمي بثقلِ جسمي على سريري، وأغمِض عينَيّ. أحاولُ أن أستعيدَ سببَ سعادتي في طريقِ عودتي اليوم. أصبحت صورةُ الفتاةِ التي لفَتَت انتباهي غَبِشةً في ذهني بعد هذا التوتُر الذي لاقاني عند دخولي شقّتِنا. حتّى شعورُ الفضولِ للتعرّف إلى لينا المصري هذه تلاشى وأصبحَ بلا معنى.

أتناولُ دفتر يوميّاتي من حقيبة ظهري، أُخَرْبِش بقلمي بضعَ خُطوطٍ سريعةٍ قاسيةٍ أضَعُ فيها كلَّ غَضَبي، ثمّ أكتبُ: **لماذا علينا أن نَشحَذ أوقاتَ السعادة أحيانًا؟ مرّة جديدة يَفعلها أبي. شعوري تِجاهه مُزدَوج. أحبُه لأنّه أبي ويعملُ بكدّ ليدفعَ أقساطَ مدرستي ويُحضِر لي كلّ ما أطلبُه من إلِكترونيّات وكتب وأحذية وملابس. لكن حين يؤذي ماما يصبحُ عدوّي الذي أكرَهُه والذي لو لديّ القدرةُ لقتَلتُه.**

أتوقّفُ عن الكتابةِ خائفًا من تلك الكلمةِ الأخيرةِ. أشطبُها، وأبدِلُها: لقتَلتُه لصرختُ في وجهِه وهَدَّدته بأنّي سألكُمُه على أنفِه وأكسِرُه إن رأيتُه يُسيء مُعامَلة ماما بعد اليوم.

أضَعُ القلم جانِبًا، أديرُ المفتاحَ في قُفل دُرجي، وأتناولُ منه دفترًا من دفاترِ يوميّاتي القديمةِ. ألقي نظرةً على الصفحةِ الأخيرةِ، وأجِدُ أنّي أنهيتُ الكتابةَ فيه منذ سبع سنوات. أقلّبُ صفحاتِه لأرى عمّا كنتُ أكتبُ في سنّ العاشرة. أجدُ أنّي كنتُ أتكلّمُ بشَغف عن السفنِ الخشبيّةِ التي أرَكّبُها، وكنتُ أرسُم كلَّ واحدة بعد

أن أنهيَ تركيبَها. أنظرُ إلى رفِّ السفنِ أمامي وأعدُّها. ستٌّ وعشرون سفينةً مكتمِلةً، واثنتان أعمَلُ عليهما حاليًا. في هذا الدفترِ موضوعُ أمّي وأبي يتكرّرُ، وعلى إحدى الصفحاتِ أقرأ: **هذا سرٌّ لن أخبرَ أحدًا به في حياتي.** وفي مكان آخر أرى أنّي قد رسمتُ نجومًا عديدةً وفوقها شمسًا ساطعةً، وكتبتُ: **مرحبًا يا دفترَ يوميّاتي الحبيبَ. اعذرني، فأنا لم أفتَخكَ منذ أسبوع، لكن عليكَ أن تعلمَ أنّي أحبُّكَ كثيرًا لأنّي أقدِر أن أقولَ لكَ أيَّ شيء في الدنيا. اليومَ أيضًا شعرتُ بأنّي سأبولُ في ثيابي حين خفتُ على ماما منه. كان غاضبًا، وسمعتُه يقولُ لها "سَأريكِ نجومَ الظهرِ إن تأخَرتِ في العملِ ثانيةً".**

أبتسِمُ لِسذاجةِ الطفلِ الذي كنتُه، إذ أذكرُ أنّي يومَها أظلَلْتُ برأسي من شبّاكِ غرفتي أبحثُ عن النجومِ في منتصفِ النهارِ. أقرأ أيضًا: **ربّما أنا السببُ في كلّ هذا. لو لم أُغضِبْ أبي بعلاماتي المتدنّية في امتحانِ نصفِ السنة، لما ثارَ من شدّةِ التعصيبِ على ماما. عليَ أن أفرحَه، أن أكونَ ابنًا جيّدًا حتّى لا يَغضبَ أبدًا.**

أغلِق الدفترَ وأفتحُ حاسوبي لألقيَ نظرةً سريعةً على بريدي الإلكتروني؛ لا جديد. أنتقلُ إلى صفحتي على الفايسبوك لأستطلِعَ أخبارَ الأصدقاء، فأجدُني دون جَلَد لهذه السخافات. أقرّرُ أن أضعَ الحاسوبَ جانبًا وأكملَ تركيبَ السفينةِ الشراعيّةِ التي بدأتُ بها الأسبوعَ الماضي. هي كبيرة ومُعقّدة، أحضَرَها أبي من اليونان

في سفرتهِ الأخيرةِ. فمنذ أن كنتُ صغيرًا، هذا هو الشيءُ الوحيدُ الذي أطلبُه منه حين يسافرُ.

بعد أن أُنهيَ تلصيقَ القطعِ الصغيرةِ الأخيرةِ في السفينةِ، أترُكُها لِينشفَ صمغُها وأبدأ بصَبغِ سفينة يابانيّة أنهيتُ تركيبَها قبل فترة باللونَين الأحمرِ والأبيض. أغرقُ في عملي وأنسى كلَّ شيء من حولي. حتّى طنطناتُ هاتفي التي تُعلِن إقبالَ رسائلَ جديدة أتجاهَلُها. أنا متأكّدٌ من أنّها من أحمد وعماد. فنحن كنّا قد اتّفقنا على أن نُجريَ دردشةً ثُلاثيّةً على سكايب هذا المساء.

أُنهي عملي، أُلقي نظرةً على ساعتي فأُفاجَأ بأنّها العاشرةُ والنصف. قضيتُ أكثرَ من ثلاث ساعات مع سفني، والغريبُ أنّ أمّي لم تُنادِني إلى العشاء. أشعرُ بكَزكَرة معدتي. أجيبُ بكلمات مختصَرة على رسائلِ صاحبَيّ معتذرًا لأنّني لن أشاركَ في الدردشةِ كما اتّفقنا بسببِ تعبي من صفِّ اليوغا وبحجّةِ أنّي نعسٌ وسأنام.

أبي ليس على كنبتِه أمام شاشتِه؛ هذا يعني أنّه خرجَ، فالوقتُ لا يَزال باكِرًا للنوم. أذهبُ إلى المطبخِ لأحضِّر ساندويش جبنة وخيار. أرى أمّي جالسةً تشربُ الشايَ الأخضرَ وتقرأ رواية. أجلِسُ بجانبِها. تلاحظُ تعابيرَ وجهي المضطَرِبةَ وغيرَ الرائقة. تنظرُ عميقًا في عينَيّ لبضعِ ثوان، ثمّ تُمسِك وجهي بين كفَّيها: "اسمغني جيّدًا يا أنَس. لا أريدُ أن تُؤثّرَ تصرّفاتُ أبيكَ معي على مِزاجكَ أو دراستكَ أو صَداقاتكَ. أفَهِمتَ؟ هو كما هو

وأنا أتدبَّر أموري. لا أريدكَ أن تَنْهمّ وتتأثّرَ كلّما حصلت مشكلةٌ بيننا. أنتَ حياتُكَ أمامكَ، فلا تنظرْ إلى الخلف."

"ماما، أنتِ لستِ في الخلف. أنا ابنكِ، والآن كبرتُ وعليّ أن أحميَكِ منه."

"حبيبي، هذا سيجلُب المشاكِل لك أيضًا. دَعْني أتصرّفُ معه بنفسي. هو في كلِّ الأحوال يسافِرُ كثيرًا، ونرتاحُ منه لِفترات طويلة أحيانًا."

لا أجيبُها. أحضِرُ ما أحتاجُ إليه من البرّاد، أصفُّ قطعَ جبنةِ الحلّومِ على رغيفِ خبز، فتسحَبُ أمّي قطعةً منها وتأكلُها: "كم أنا جائعة. سأحضِّر لكَ عصيرًا ونتناولُ العشاءَ بينما نشاهدُ فيلمًا، ما رأيكَ؟"

أحبُّ إمْضاءَ الوقتِ مع أمّي بخاصّة حين نكونُ دون أبي في البيت. نُقلّبُ بعض القنواتِ فلا نجدُ فيلمًا يعجبُنا نحن الاثنَين. هي تحبُّ أفلامَ الحبّ والرومانس، وأنا أريدُ أفلامَ المغامرات أو الخَيال العِلميّ. نَخفِضُ صوتَ التلفزيون كي لا نوقِظَ أختي الغارقةَ في النوم على كنَبةٍ جانبيّة، ونتحدّثُ ونحن نأكلُ. أتسلّى بكلامِ أمّي عمّا يحصلُ معها في صالون تَزيينِ الشعرِ الذي تُديرُه. تخبرُني عن سَخافةِ بعضِ النساءِ اللواتي يُرِدْنَ كلَّ شعرةٍ من شَعرِ رؤوسِهنّ في المكانِ المناسب دون أن تَزيحَ ولو ميلّيمترًا واحدًا، ولا يخرُجْنَ من عندها إلّا بعدَ تحقيقِ ذلك برشّ نصفِ قنّينةِ رَشّاش تَثبيتِ الشعر على رؤوسهِنَ وفي رئتيْ أمّي التي تكرَه رائحتَه. تخبرُني عن البناتِ السمْراوات اللواتي يطلُبنَ منها صبغَ

شُعورِهنَ بالأصفرِ أو الأشقرِ، ولا يسمعنَ نصيحتَها باقتراحِ ألوان تُلائمُ لونَ بَشرتِهنَ أكثر. تخطرُ في بالي فتاةُ اليوغا. كم بدتْ لي طبيعيَّةً وعَفوِيَةً، لا علاقةَ لها بنمطِ الفتياتِ في صالون أمّي.

"تكلّمتُ كثيرًا وأنتَ لم تُخبزني شيئًا بعد. كيف كان يومُكَ. كان عندكَ صفُّ يوغا، أليسَ كذلكَ؟"

"عادي"، أقولُ وأنا أحاولُ إخفاءَ ابتسامة.

"عادي فقط؟"

أقرّرُ أن أخبرَها عن لينا، لأنّي في كلّ الأحوالِ أريدُ نصيحتَها في هذا الأمر.

تبتسِمُ وأنا أتكلّمُ. الشيءُ الوحيدُ الذي أستبدِلُ الحقيقةَ به هو أنّي أذكرُ أنَ الدفترَ الذي وقعَ منّي هو دفترُ الرياضيّات. لا أريدُ أن ألْفِتَ انتِباهَ أمّي إلى كِتاباتي الخاصّة.

"ماذا تقترحينَ أن أفعلَ حين أراها ثانيةً؟"

"كُن طبيعيًا يا حبيبي. أفضلُ شيء تفعلُه هو أن تَبينَ على حقيقتِكَ منذ أوّلِ لقاء."

يقطعُ حديثَنا رجوعُ أبي إلى البيت. هو رائق، هادئ، يبتسِمُ. يقتربُ منّي ويمسّدُ شعري. أشعرُ ببرودة تجتاحُ أطرافي. تلقائيًا ولاإراديًا أبعِدُ رأسي فيسحبُ يدَه. لا أعرفُ لمَ ألومُ نفسي على ردّة فعلي العَفوِيّة هذه. ليتَ الأمورَ مختلفة. كم أوَدُّ لو أعانقُه وأقولُ له إنّي أحبُّه وهو هادئ، وإنّي أتمنّى لو يبقى مزاجُه هكذا ويعاملُ أمّي بكلّ الحبّ الذي تستحقُّه. كم أوَدُّ لو أراهُ الآن

يغمرُها ويعتذرُ منها. لو يعِدُها وغدَ شرف ألّا يُسيءَ إليها بعد اليوم. كم أوَدُّ لو يقبّلُ يدَيها ودموعُ نَدَمه تبلّلُها. كم أوَدُّ كلَّ ذلك. لكنّي أعرِفُ أنّه لن يقومَ بأيّ من هذه الأفعال. أنهَضُ من مكاني وأقولُ: "أنا تَعِبٌ ونَعِسٌ." أنسحِبُ إلى غرفتي.

أعودُ إلى الحاسوب، أطبَعُ اسمَ لينا المصري في خانةِ البحثِ في الفايسبوك، فتفتحُ صفحتُها. أضغطُ على زِرّ الرسائل، ودون تردُّد، أكتبُ لها رسالةً: **شكرًا لإعادةِ دفتري اليوم. أنَس.**

5

لينا

"مَن هو الذي يبعثُ إليكِ رسالةً في هذا الوقتِ من الليلِ؟" تسألُ نسرين بفضول وأنا أعيدُ قراءةَ الرسالةِ.

"هيّا قولي... أتركُكِ أسبوعَين فيصبحُ عندكِ أخبار وأسرار؟"

"آه... أنَس. الآن تذكّرتُ الاسم."

تجولُ الأسئلةُ في رأسي. لماذا يكتبُ لي رسالةً؟ هل يراقبُني في صالةِ اليوغا كما أفعلُ أنا؟ هل أجيبُه؟

"من هو أنَس؟ من هو؟ من هو؟ آه، هذا الخبر الذي تكلّمتِ عنه في الإيميل!"

أجيبُ إلحاحَ نسرين باختِصار وأعِدُها بمزيد من الأخبارِ إن التقيتُ الشابَّ مجدّدًا.

لا أردُّ على الرسالةِ.

يومَ الجمعة، موعدُ صفِّ اليوغا الأسبوعيّ، أذهبُ وقلبي يطرقُ. لكن لماذا؟ ربّما لأنّي لا أعرفُ بعد كيف على الفتاةِ أن تتصرّفَ مع الشابِّ هنا. في فرنسا، كانتِ الأمورُ تجري بالنسبةِ لي على شكلٍ طبيعيّ. الأصدقاءُ أصدقاء. شباب... بنات... لا يهمُّ كثيرًا. كلٌّ يتصرّفُ على طبيعتِه وكلٌّ يقولُ بصراحةِ ما يجولُ في رأسِه وقلبِه

تجاهَ الآخر. على الأقلّ هذه تَجرِبتي في مدرستي بين رفاقي. أمّا هنا، فأمّي تحذِّرُني، ونسرين تحذِّرُني.

"كوني ثقيلةً، رزينةً"، "لا تُمازِحي الشابَّ كثيرًا، قد يُسيء فهْمَ قصدكِ"، "لا تتكلّمي مع شُبّان أكبرَ منكِ سنًّا"، "لا تقبَلي دعوةَ أحد إلى نزهة في السيّارة"، إلخ...

أجولُ القاعةَ بعينَيّ بحثًا عن أنَس. ليس هنا. أتردّدُ في انتِقاءِ المكانِ الذي سأضعُ فيه فَزشَتي، وفي النهاية، بعدما أخسِمُ في رأسي أمرَ تَغيُّبِه، أستقِرُّ في المكان ذاتِه الذي أختارُه في كلّ مرّة. لكن قبل بدءِ الصفّ بثوان، يصلُ راكضًا، يعتذرُ من معلّمةِ اليوغا لتَأخُّرِه، ويأخذُ مكانًا له في الخلف. هذه المرّة أيضًا يضيعُ تركيزي. فأنا أشعرُ بوجودِه بقُوّة. ماذا لو كان يراقبُني؟ ماذا لو وجدَ أذُنَيّ كبيرتَين نسبةً إلى رأسي ومؤخّرَتي سمينةً؟

يَخيبُ أمَلي حين ألتفتُ في نهايةِ الحصّةِ ولا أجدُه في مكانِه. هل غادَر منذ زمن؟ أمْ كان على عجلة فانسحبَ حالما أنْهَتِ المعلّمةُ الصفَّ؟ أقرّرُ ألّا أشْغِلَ بالي به أكثرَ ممّا فعلتُ حتّى الآن. بدا لي لطيفًا في لقائنا السريعِ في المرّةِ الماضيةِ، وهذا كلُّ شيء. لا يعني ذلك أنّنا سنُصبحُ صديقَين. أخرُج لألاقيَ نسرين في المقهى القريب.

6

أنَس

ما لي أهربُ سريعًا هكذا قبل أن تلتفِتَ إليّ؟ ليتني لم أرسِلْ إليها رسالةً. لماذا فعلتُ ذلك؟ ما أغباني. قد تكونُ تضايقتْ ولذلك لم تُجبني؟ أطردُ الأفكارَ من ذِهني وأتوجَّه إلى مقهى الموكا حيث ينتظرُني عماد وأحمد للمُراجَعة معًا لامتحان الفيزياء. ما إن أصِلُ حتّى يَبدأ أحمد بتعليقاتِه المعتادَةِ عن كوني أتابعُ اليوغا. منذ أن علِمَ بأمرِ انتسابي لصفِّ اليوغا، يُصِرُّ عليّ أنّها مَضْيَعَةٌ للوقتِ، وأنّ بإمكاني أن أحدّقَ في فراغِ الجدارِ في غرفتي كما يفعلُ هو لإراحةِ الرأسِ من التفكيرِ، ولا داعي للَبَكةِ الصفّ.

"وجهُكَ منوَّرٌ وكأنّكَ عائدٌ من جلسةِ تذليك تايوانيّ"، يقولُ هازئًا.

"وفِّر تعليقاتكَ ولْنبدَأ الدرسَ. امتحانُ آخرِ السنة بعد يومَين ولم نُنهِ حتّى نصفَ المادّة"، أردُّ عليه بنبرةٍ سُخرية تشبِه طريقةَ حديثِه.

"لو لم تضِغ وقتَكَ في اليوغا لَبدأنا منذ ساعتَين يا فالح"، يجيبُني أحمد، فيلْكزُه عماد بِكوعِه: "عِفْنا يا أحمد. لماذا تعلّقُ دائمًا على هذا الموضوعِ؟ هو حُرّ."

"ألَم تَمَلّ بعد؟" يهمِسُ أحمد في محاولة أخيرة منه لإغاظَتي. فأنقَضُّ عليه وأمسِكُه بكُمِّ قميصِه، وينقَضُّ عماد فوقي؛ بين ضحكِنا وصراخِنا نُحدِثُ ضجّةً تجعلُ النادلَ يقتربُ ويطلبُ منّا الهدوء.

نهدأ، ينتقي كلٌّ منّا شرابًا. نطلبُ 2 كايوتشينو و1 موكّا ثمّ أقول لرفيقَيّ: "قبل أن نبدأ، خبر عاجِل: الأسبوعَ الماضي التقيتُ في صفّ اليوغا بفتاةٍ ظريفة. حصلَ حديثٌ عابِرٌ بيننا. اليومَ أتَت أيضًا، لكن لم تسنَح لي الفرصةُ للحديثِ معها."

"ها؟ تقولُ خبر عاجل؟ هيّا بكَ بالتفاصيل. يمكن لدرسِ الفيزياء أن ينتظرَ خمسَ دقائقَ أخرى"، يقولُ أحمد وهو يعصِرُ مِغصَمي بقبضتِه وكأنّني سأفِرُّ من المكان إن أفلتَني.

"لا تفاصيلَ. وقعَ دفترٌ من حقيبتي فوجدَتْه وأعادَتْه إليّ."

"كيف شكلُها؟" يسألُ عماد.

"يكفي، نبدأ الدرسَ الآن، وأعدِكُما بأنّي إذا رأيتُها ثانيةً فسأخبرُكما بكلّ التفاصيل."

"في المرّة الآتية التَقِطْ لها صورةً بهاتفِكَ خفيَةً. هكذا نراها ونوفِّر عليك عناءَ وصفِها لنا." هذا ما يقترحُه أحمد؛ فِكرتُه تعجبُني، لكنّي لا أبدي أيَّ ردّة فعل كي لا يطولَ الحديثُ عنها وأنا بالكاد أعرفُها. على كلّ حال لا أظنُّ أنّ لديَّ الجرأةَ لتصويرِها. إن رأتني تكونُ مصيبةً.

نفتحُ كتبَنا وحواسيبَنا، ونبدأ بالدرسِ. في المرّة التالية التي أنظرُ فيها إلى ساعتي ألاحظُ أنّ ساعتَين قد مرّتا دون أن نعيَ ذلك. "ألَم تجوعا بعد؟ أنا سأخورُ من جوعي"، أقولُ.

"ما رأيُكما بساندويش فلافِل الآن؟" يقولُ عماد وهو ينزعُ نظّارتَه ويفركُ عينَيه اللتَين احمرّتا من كثرةِ التركيز.

"فِكرة عبقريّة"، أردُّ عليه. نضعُ أغراضَنا في حقائبِنا، يدفعُ كلٌّ مِنّا ثمنَ قهوتِه، ونمشي باتّجاهِ بائعِ الفلافل. بينما نقفُ على رصيف شارعِ الحمرا الرئيسيّ نأكلُ والطرَطور ينقّطُ من خلال أصابعِنا، ألمحُها تعبرُ الرصيفَ إلى ناحيتِنا مع صديقة. أقولُ وفمي مليء: "لا تنظُرا، لكنّها هنا. الشابّة بالتيشيرت الصفراء." وماذا يفعلُ صديقايَ العزيزان؟ ينظران ناحيتَها طبعًا، ما يجعلُها وصديقتَها تتنبّهان إلينا نحن الثلاثة نراقبُهما تقتربانِ من بائعِ الفلافل.

تبتسمُ حين تراني. أمسحُ ما علقَ من طعام على فمي، أقتربُ منها وأحيّيها. تردُّ السلامَ وتعرّفُني برفيقتِها: "نسرين، ابنةُ خالتي." وأنا أقدّمُ لهما أحمد وعماد. نُدردِش كلمات سريعةً عن صفِّ اليوغا، بينما نسرين تحدّث عماد. يتّضحُ أنّها تعرفُه بسبب صداقة بين والدتَيهما. يتبادَلان حديثًا سريعًا عن آخرِ مرّة تقابلا فيها. يبدو أنّهما لم يلتقيا منذ أن كانا في سنّ الثالثة عشرة وكان ذلك خلالَ دعوةِ عشاء في بيتِ عماد أتث

إليها نسرين مع والدَيها. لم يكن أبوها قد انتقلَ إلى فرنسا بعد. تمُرّ بعضُ ثواني لا أحد يقولُ فيها شيئًا. كم أشعرُ بالحرجِ في مثل هذه اللحظات. ثمّ نقولُ، أنا ولينا، في الوقتِ ذاتِه: "طيّب، باي. سهرة ممتِعة"، وتدخلُ مع ابنةِ خالتِها إلى محلّ الفلافل.

يجرُّني أحمد من كوعي كي نبتعدَ عن المكان، وحين نصبحُ على مسافةٍ آمنةٍ من لينا ونسرين، يقولُ:

"من أين هي؟ أجنبِيّة؟ تلفظُ الخاءَ كافًا والعينَ ألِفًا، والطاءَ تاءً والـ...".

"كفى غلاظة يا أحمد"، أردُّ عليه وأنا أدفَعُه.

يضحكُ ويضيفُ: "على كلٍّ ذوقي ليس من ذوقِك. بإمكانكَ جذبُ أجملَ منها بكثير."

يقولُ عماد: "أنا أراها مقبولة."

"أمّا أنا فأجدُها لطيفةً وشكلُها أكثر من مقبول. أودُّ أن أتعرّفَ إليها أكثر، لكنّي لا أريدُ أن أقومَ بأيِّ خطوة غلَط. سأنتظرُ لأجدَ الفرصةَ المناسبة."

"لا تُعقّدِ الأمورَ يا أنَس. في المرّة المقبلة اقترِح عليها أن تتناولا الغداء معًا، بكلّ بساطة. وبعد الكلام والتعرّفِ إليها أكثر، ستكتشِفُ بنفسِكَ الخطوةَ التالية المناسِبة." هذا ما يقولُه عماد.

يَردّ أحمد: "غداء؟ ما هذا الاقتراحُ العظيم يا فالِح؟ أنتَ دائمًا حذرٌ هكذا. عمرُنا سبعة عشر عامًا يا أخي، ومن المؤكّدِ أنّها تفضّلُ أن ترافقَها في نزهة إلى البحر عوَضًا عن غداء في مطعم مثل أمّهاتنا."

”همم... البحر. فكرة جميلة“، أقولُ ذلك ويسرَحُ تفكيري إلى سيناريو دَعوتي لها إلى البحر.

7

لينا

"إذًا هذا هو أنَس. يبدو لطيفًا. ماذا ستفعلين بشأنِه؟"، تقولُ ابنةُ خالتي. "أفعلُ بشأنِه؟ لا تضخِّمي الأمورَ يا نسرين. هو مجرّدُ معرفة جديدة. لا أكثر."

بعدَ أن نُنهي أكلَ ساندويشاتِ الفلافِل نجلِسُ في مقهى لنشربَ الشوكولاتة الساخِنة. نصادِفُ هناك مجموعةَ صبايا، معظمُ أحاديثِهنَّ خليطٌ من الفرنسيّة والعربيّة والإنكليزيّة. هذا، ويبدو لي أنّ كثيرات منهنّ قد خضعنَ لعمليّاتِ تجميل للأنف. أقولُ لنسرين: "انظري. ألا تلاحِظين أنّ أنوفَ البناتِ متشابهةٌ في هذا البلد؟"

"همم... بصراحة كنتُ أريدُ أن أخبرَكِ عن قرار جِدّي قد اتّخذتُه. قرّرتُ أن أجرِيَ عمليّتَين جراحيّتَين، الأولى لتصغيرِ أنفي، و..."

أقاطِعُها: "هل جُنِنتِ؟ أنفُكِ جميل هكذا، وهو يلائمُ وجهَكِ، إن صغّرتِه ستتغيّرُ هيئتُكِ وربّما شخصيّتُكِ."

"لا تبالغي يا لينا... كلُّها عظمة زائدة سيُريحونَني منها. ألا تعلَمين أنّ أنفَ الإنسان يستمرُّ في النموّ طوالَ الحياة؟ أتخيَّلُني بعد ثلاثين سنة بأنف لا أرى شيئًا بسببِه وتنحَوِلُ عيناي كلّما نظرتُ إلى الأمام."

لدى نسرين القدرةُ على السخريَةِ من ذاتها دون أيّ عُقَد. أسألُها: "قلتِ عمليّتَين؟ ما هي الثانية؟ هاتِ، أتحِفينا يا آنسة."

"سأصغِّرُ معدَتي، لكن عليّ أن أنتظِر بضعةَ أشهر حتّى أبلُغَ سِنَّ الثامنةَ عشرة." أصدَمُ من كلامها. أشعُر بأنّي أريدُ أن أقفِزَ صوبَها وأمسِكَها من كتفَيها وأهُزَّها لأوقِظَها من هذه السخافةِ التي تجولُ في رأسِها. أقولُ بعصبيّة: "اسمحي لي بالقولِ إنّكِ مجنونة."

"أنا في غايةِ الجِديّة. حاولتُ أكثرَ من عشرةِ أنظمة غِذائيّة لتخفيفِ وزني، لكنّي فشِلتُ في كلِّ مرّة."

"لا أفهمُ الناسَ في هذا البلد"، أصيحُ، فألاحِظ التفاتَ البعضِ من الجالسين إليّ. أهَدِّئ نفسي قبل أن أكمِل: "إنّكم تتعامَلون مع عمليّات التجميلِ ببساطة وكأنّ الأمرَ تحصيلُ حاصِل. العمليّةُ هي الحلُّ السريعُ لكلِّ شائبة، وحتّى حين لا تكونُ هناك أيُّ شائبةٍ تتخيَّلون واحدةً وتقرِّرون التخلُّصَ منها. في الأسابيع الأولى لوصولي إلى لبنان، كنتُ أستغرِبُ في كلِّ مرّة أرى امرأةً بشفتَين كبيرتَين وكأنّهما مخشُوّتان بالقطنِ. أكثرُ من نصف النساء لهنّ شفاه مُضخّمة، أنوف مُنمنمَة، خدود مشدودَة ومَخشُوَّة إلى حَدِّ الانفلاقِ، وحواجب مرسومة بالوَشم."

"لا تُبالِغي يا لينا!" تردُّ نسرين.

"هذا صحيح على الأقلّ بين الشابّات والنساء اللواتي يرتَدنَ المقاهي والمطاعمَ والمسابحَ التي نتردَّد إليها مع أمّي وأمّكِ."

ترشُفُ ابنةُ خالتي شرابَ الشوكولاتة الذي لم يَعُد ساخِنًا.

أضيف: "أنتِ بدأتِ تقَعين في الفخِّ يا نسرين. ستبدَئين بالأنفِ، ثمّ بتصغيرِ المعدةِ، وقبل أن تبلُغي الخامسةَ والعشرين ستصبحينَ مثل النساء اللواتي نراهنّ على كورنيش الزيتونة، كلُّ شيء فيهنّ زائف، ووجوهُهنّ مثلُ الأقنعَة المشمَّعةِ."

"لا تكوني سخيفةً! ألم تلاحِظي أنّكِ في الفترة الأخيرة تزيدين من نقْدِكِ للمجتمَعِ هنا؟ ماذا دَهاكِ؟ عليكِ أن تتأقْلَمي كي تعيشي بسلام."

"إن كان التأقْلُمُ بعمليّات التجميلِ، فلا... شكرًا عزيزتي. أفضِّلُ ألّا أعتادَ العيشَ هنا إذًا."

"لن نتّفِقَ. أنتِ لن تُغيِّري رأيي يا لينا. منذ صغري وأنا معقّدةٌ من أنفي ومن وزني."

أتلقّى رسالةً هاتفيّةً من أمّي تقولُ إنّها في انتظاري في الشارع المقابل. نُنهي حديثَنا وآخرَ قطَرات من شرابَينا، ونتّجِهُ بسرعة إلى السيّارة. نوصِلُ نسرين ونعوذ إلى البيت.

8

أنَس

أنظرُ إلى ساعتي فأجِدُ أنّها قد تجاوزَتِ الثامنةَ والنصف. "ماذا نفعلُ الآن؟" إلى البيت أم نكمِلُ السهرةَ في الحمرا؟"

"نُكمِل طبعًا"، يقولُ عماد. "درسنا كثيرًا ونستحِقُّ ساعتَين من التسلية. هيّا نرَ مَن مِنَ الأصحاب سهران في الروزاريا الليلة"، يقترحُ أحمد. أتمنّى من كلِّ قلبي أن تكونَ لينا أيضًا ممَن يحبّون الروزاريا، فموسيقاهُم جيّدة عادة، والكثيرُ مِمَّن في جيلِنا يسهَرون هناك. نتّجِه إلى المكان. لكنَّ الأحلامَ تبقى أحلامًا أحيانًا. لينا ليست هنا.

أحبُّ السهرَ مع رفاقي، ودومًا، حين يأتي موعدُ الرجوعِ إلى البيت، ينقبضُ قلبي وكأنَّ ناقوسَ الغَمِّ يَطرُق فيه. في معظمِ الأحيانِ يكونُ الجوُّ ثقيلًا، لكنّي الليلةَ، عند عودتي، أفاجَأ بأمّي تجلِس جنبَ أبي يحضران فيلمًا معًا، ويلُفُّ كتفَيها بساعدِه. خير؟ ما هذا الحبُّ كلُّه؟ هل هي مرتاحة؟ هل هذا هدوءُ ما بعد عاصفةٍ حصلت بينهما مجدّدًا؟ كلَّما فكّرتُ في وضعِ أمّي أشعرُ بزُكبَتيّ تضعُفان، وقلبي يرتجفُ، ومعدَتي تنكَمِشُ. أفكّرُ أيضًا في أختي. دارين في الثانية عشرة،

لا تعبَرُ لي أو لأمّي أبدًا عن قلقِها. تراقبُ فقط. وكلّما احتدَّتِ الأمورُ بين أمّي وأبي، تنسَحِبُ إلى غرفتِها، تغلقُ الباب، تضعُ الموسيقى في أذنَيها وتغرقُ في قراءةِ كتاب.

أحيّيهِما وأدخلُ غرفتي. أفتحُ صفحةَ الفايسبوك، فأجدُ طلبَ صداقةٍ من لينا المصري. يرقُص قلبي. أضغطُ على زرّ القبول دون تردّد ولو لثانية. أحلّلُ أنّها استنتجَتْ اسمَ عائلتي من نسرين التي تعرِفُ ابنَ عمّي. أتصفّحُ مَلفَّ صورِها، شيءٌ لم أفعلْه في أوّلِ مرّة أرسَلْتُ إليها رسالة. ألاحظُ أنّ معظمَ الصور مأخوذةٌ في بلد أوروبيّ. صور في طفولتِها، مع رفاق في المدرسة أو في حديقةٍ ملاه. أحاولُ أن أحزرَ ما هو البلد. الكتاباتُ في بعض الصور فرنسيّة. أسماءُ المقاهي، الدعاياتُ في لافِتات الشارع، أسماءُ الشوارع... إذًا هي كانت تعيشُ في فرنسا قبل أن تأتي إلى لبنان. هذا يوضحُ الآن سببَ لَكْنتِها العربيّةِ المميّزةِ. يخطرُ لي أن أكتُبَ لها رسالةً، وقبل أن أفكّرَ في الأمر مَلِيًّا، أجِدُني أطبعُ الكلمات.

"هاي لينا، شكرًا على الصداقةِ الجديدةِ. عندي سؤال. هل لديكِ وقت للّقاء بعدَ الصفّ في المرّة المقبلةِ؟ ممكن أن ندرسَ معًا في المقهى. في انتظارِ ردّكِ"

يأتيني الردُّ بعد دقائقَ، بكلمة واحدة: **"بالطبع"**.

9

لينا

أنتظرُ يومَ الجمعة بفارغِ الصبرِ. وأخيرًا سيصيرُ عندي حياة اجتماعيّة لا تتعلّقُ بنسرين وأصدقائها. لا يخلو الأمرُ من انشغالِ بالِ أمّي حين أخبرُها بأنّي سألتقي بأنَس لِندرسَ معًا. تجلِسُ بجانبي وأنا أتصفّح الفايسبوك فتنهَمِر عليّ أسئلتُها ومواعظُها.

"مَن هذا الشابّ؟"

"انتبهي يا حبيبتي مع من تتصادَقين."

"سمعتُ أنّ هناك الكثيرَ من المخدِّرات بين أيادي الشبّان هنا. إن شعرتِ بأيّ شيء مشكوك في أمِره تبتعدين كليًّا."

"ماما!" أقاطعُها. "كفى أرجوكِ. أعرفُ كيف أعتني بنفسي."

"أنتِ لا تعرفينَ هذا البلدَ جيّدًا يا حبيبتي. لذلك أخافُ عليكِ."

"لو كان بابا موجودًا لاختلفَ الأمر..." حالما تفلتُ من فمي هذه الكلمات، أندَمُ عليها. يحمرُّ وجهي ووجهُ أمّي. تتبلّلُ عيناها في الحالِ بدمعٍ تمنعُه من السقوط على خدَّيها. ألومُ نفسي وأنسحبُ بنظري إلى شاشة حاسوبي. لا أحبُّ أن أراها متأثّرةً هكذا.

يومَ لقائنا، أعدُ أمّي أن أطمئِنَها بعد الخروج من صفّ اليوغا، وأن أخبرَها عن اسمِ المقهى الذي سندرسُ فيه أنا وأنَس، وأن أجيبَ على رسائِلِها الهاتفيّة متى أرسلتها للاطمئنانِ أكثر.

هذه المرّةَ يأخذُ أنَس موقعًا بجانِبي. نتصافَح ثمّ نتبادلُ قُبلتَين... لا... هناك ثالثة. أوه. هذا الأمرُ يربِكُني كثيرًا. أنا معتادة على قُبلتَين عند السلام على الأصدقاء، لكنْ في لبنان يُضيفون ثالثة. أنسى ذلك في كلّ مرّة. تُخفِتُ معلّمة اليوغا الأنوار، تشعِلُ بعض الشموع، تشغّلُ موسيقى خفيفةً هادئةً، ثمّ تبدأ بالتعليمات: "أغمِضوا أعيُنَكم. استَرخوا بالكامل. خذوا نفَسًا عميقًا من الأنف يملأ البطن. غذّوا كلَّ عضلةٍ من عضلاتِ جسمِكم بالنفَس الذي تتنشّقونَه..."

أركّزُ بالكامِل على الإرشادات. أشعُر بيدَيْ المعلّمةِ تضغطان بنعومَة على كتفَيّ، إشارةً منها بأن أرخيَهما. أفعلُ ذلك.

بعد ساعة ونصف نُنهي الصفّ، وكما اتّفقنا، نخرُج أنا وأنَس معًا.

10

أنَس

نمشي أنا ولينا إلى مقهى الموكا في الحمرا، موقعِ لقاءاتي المتكرّرة مع أصدقائي.

ربّما أخطأتُ في اختيار المكان. ماذا لو أتى أحمد أو عماد؟ لن أسلَمَ من تعليقاتِهما فيما بعد... على كلّ، سنرى.

نطلبُ كابوتشينو، ويفتحُ كلٌّ منّا كتابًا ودفترًا. لكنّنا لا نركّزُ على الدرسِ أبدًا.

"هل تدرسين العربيّة في المدرسة؟" أسألُها.

"للأسف لا. هذه أوّلُ سنة لي في لبنان. أتبَعُ صفوفَ البرنامج الفرنسي. حين كنتُ صغيرةً، كنّا أنا وأختي نذهبُ مرّةً في الأسبوع، يومَ السبت، إلى صفٍّ تعليم اللغة العربيّة. لكن حين كبرْنا وانشغلْنا بمدارسِنا وكثرةِ وظائفِنا، قاوَمْنا رَغبة والدَيّ في متابعةِ الصفوف، فتوقّفْنا كلّيًا عن تعلُّمِ العربيّة."

"لاحظتُ أنّكِ تتكلّمينَ اللهجة اللبنانيّة بشكل مُكَسَّر"، أقولُ وأنا أبتسِم.

"هل الأمرُ بهذا الوضوح؟"

أهزُّ برأسي أنْ نعم.

"هذا الموضوع يزعجُني حقًّا؛ فمهما حاولتُ، يعرفُ الآخَرون أنّي لستُ من هنا."

"لكنّ لكنتَكِ ظريفة"، أقولُ. "بخاصّة حين تخفّفين الأحرفَ الثقيلةَ مثلَ القاف والضاد."

"لا أوافقُكَ الرأي. شيءٌ مُريبٌ أن يسألَني الناسُ كُلّما فتحتُ فمي لأقولَ شيئًا، 'يبدو أنّك أجنبيّة. من أين أنتِ؟' والأسوأ هو حين أبدأ الكلامَ بالعربيّة فيُجيبونَني تلقائيًّا بالإنكليزيّة أو الفرنسيّة ظنًّا منهم أنّهم بذلك يسهّلون على 'الغريبة' استِكْمالَ المحادَثةِ. حتّى صاحبُ الدكّان القريبِ من بيتِنا يقولُ لي كلّ صباح:

?Bonjour demoiselle, ça va

أو Good morning how are you today?

"هاها... ستتغيّرُ الحالُ مع مرورِ الوقت، أؤكّدُ لكِ ذلك."

"في فرنسا لم أكنْ أتكلّمُ العربيّة إلّا مع أهلي. في مدرستي، حتّى لو كان هناك بعضُ التلاميذِ العرب، لم نكُن نتحادثُ إلّا بالفرنسيّة."

"هل أنتِ نادِمة على توقيفِ دروسِ العربيّةِ في وقت مُبكِر؟" أسألُها. ترفعُ كتفَيها وكأنّها غيرُ متأكّدة من الإجابةِ: "لا أظنّ. لماذا أتعلّمُ العربيّة؟ كلُّ الدراساتِ الحديثةِ والاكتشافاتِ في التكنولوجيا وسائرِ العلوم تحصُل في الغرب. أقدِرُ أن أقرأ عن أيّ موضوع بلغة أجنبيّة."

"لكنَّ اللغة العربيّة جميلة جدًا؛ هناك الشعرُ القديمُ والأدبُ الحديثُ. لن تتمكّني من التمتُّعِ بذلك أبدًا إذًا."

"كلُّ كتاب عربيّ مُهمّ قد تُرجمَ أو سيترجَمُ إلى الانكليزيّة أو الفرنسيّة، لذلك يمكنني أن أقرأ الأدبَ العربيَّ المترجمَ. لن أخسرَ كثيرًا."

لا أوافقُها الرأيَ على الإطلاق، لكنّي لن أتجادَلَ معها أكثر من ذلك في الموضوع.

"هل تستطيعينَ السهرَ معي ومع أصدقائي غدًا؟ سنذهبُ إلى الروزاريا. مكانٌ لطيفٌ قريبٌ من هنا."

قبل أن تجيبَ، تستأذنُ لينا منّي لتردَّ على رسالة هاتِفيّة وردتْها. أراقبُ خُصلات شعرِها البُنيّ تتدلّى على جنبَي وجهِها. شفتاها داكِنَتا الحُمرَةِ ممتلِئتان. كم أحسُدها جذّابةً. تأتي إجابتُها عن سؤالي وأنا أتمعَّنُ في وجهِها، فأرتبكُ وأحوِّلُ نظري إلى شاشة هاتفي، ثَم إلى ساعتي.

"أكيد. لمَ لا؟ هل أقدِرُ أن أدعوَ ابنةَ خالتي لتنضمَ إلينا أيضًا؟"

"بالطبع. لا مانعَ أبدًا"، أقولُ.

"والآن، ندرس قليلاً؟" تسألُ وهي تبتسِم.

"ندرس."

لا أعرف إن كانتْ هي مركِّزةً على الدرسِ؛ أنا لستُ في ذلك الوارِد. عيناي في دفتري وقلمي في يَدي، أدَّعي قراءةَ ملاحظاتي لكنّي لا أرى شيئًا. بل أفكِّر. أفكِّر

بأمّي. لا أعرفُ لِمَ تخطُر على بالي الآن. أتمنّى أن يكون في البيت هدوء.

11

لينا

"أخبريني كلَّ شيء. بالتفاصيل المملّة"، تقولُ نسرين ونحن نتحادثُ على الهاتف بعد عودتي إلى البيت.

"لم يحصلْ أيُّ شيء مهمّ. تحادثْنا قليلاً ثمّ درسنا."

"هل هو ظريف؟ يقولُ النكاتَ أم جِدّي؟ وقح أم مهذّب؟"

"كم أنتِ فضوليّةٌ يا نسرين"، أجيبُها. "هو مهذّبٌ وظريف، لكن هناك شيء واحد أزعجني. كان ينظرُ إلى ساعة يدِه كلّ خمس دقائق تقريبًا وكأنّهُ يريدُ الوقتَ أن يمرّ. لكنْ في الوقتِ نفسِه، شعرتُ بأنّه متحمّس خلال أحاديثِنا. لا أفهم."

"همم. أتظنّين أنّه كان مرتبطًا بموعد آخر؟"

"لا. شعرتُ فقط بأنّه قلقٌ. بالمناسبة، أنا وأنتِ سنسهَر معه ومع صديقَيه غدًا."

"واو. فكرة حلوة"، تقولُ.

تنتهي المكالمةُ بعد أن تستعجِلَني نسرين لإقفالِ الخطّ بسبب مكالمة أخرى وردَتْها. أذهبُ إلى غرفةِ أمّي، أراها مُمدّدةً على السريرِ تتصفّحُ ألبومَ صور قديمًا. أجلسُ، فتضعُ ساعِدَها حول كتفي وتُقرّبُني منها أكثر. أخلعُ حذائي وأتمدّدُ بجانبِها: "أتذكرين ذلك اليوم؟ يومَ

قضينا النهارَ في الحديقة العامّة؟ يومَها حضّرنا سلّةً فيها فاكهة وساندويشات وعصائر. أمضَينا وقتَنا نلعَبُ ألعابَ الورقِ ونأكلُ ونشربُ."

"أذكرُ. كانوا قد سمَحوا لبابا بأن يغادرَ المستشفى في ذلك اليوم، فاحتفلْنا بهذه الرحلة."

"كم كان يبدو عليه الفرحُ في تلك النزهةِ. مسكين. تُوفّي بعدها بأقلّ من أسبوع."

أشدُّ على يدِ أمّي: "هل اشتقْتِ إليه مثلي؟" أسألُها.

"لا أقدرُ أن أصفَ مدى شوقي إليه. كانتْ حياتُنا نحن الأربعة هانئة مستقرَّة."

أغمرُ أمّي وأتمنّى ألّا تبكي ثانيةً. لا تفعلُ. تفلتُ من بين ذراعَيّ وتكملُ تصفُّحَ الألبوم.

أغرقُ معها في الذكرياتِ، بصمت. صمت عميق يُخيِّمُ علينا. الضجيجُ الوحيد الذي يملأ أذنَيّ هو الخارج من الصورِ الملوّنةِ بين يدَيْ أمّي. أسمعُ رنينَ ضحكةِ أبي في إحدى الصورِ، والموسيقى والصخَبَ في صورةِ حفلةِ عيد ميلادي الثامن وأبي يحملُني على كتفَيه بينما يرفعُ إليّ الكاتو كي أنفخَ على الشموع. أسمعُ زحمةَ الشارعِ وخريرَ الماء في مدينة روما ونحن نأكلُ البوظة جنبَ النافورةِ المشهورةِ **فونتانا دي ترفي**. أسمعُ صوتَ أبي غائصًا في نقاش مع صديقِه فرانك، وصوتُ أمّي تنَده لأبي كي يقتربَ منها لتأخذَ صورةً معه؛ لا يبدو في تلك الصورةِ غيرُ كفِّ يده اليُسرى. أشمُّ عِطْره في صورة

يغمزُني فيها، بينما تجلِسُ أختي نادية بجانبي تأكلُ تفّاحةً.

"أين نادية؟" أسألُ أمّي.

"قالَت إنّها ستتأخّرُ في الجامعة، فلدَيها مشروع عليها تسليمُهُ بعد يومَين."

في الروزاريا الموسيقى صاخبة. نصِل أنا ونسرين فنجدُ أنَس وأحمد وعماد قد سبقونا. يرفعُ أنَس يدَه ملوّحًا لنا بالاقتراب. في البداية يدورُ حديثٌ عاديٌّ يوشِكُ أن يكون مُمِلًّا. لكنّ ذلك يتغيَّر حين يوجِّه لي عماد هذا السؤال: "تقولين إنّكِ أميركيّة-فرنسيّة-لبنانيّة. لكن ما هي هويّتُك؟ ماذا تَشعرين نفسكِ؟"

"هذا أصعبُ سؤال يُوجَّه إليّ. أنا كلُّ ذلك، لكنّي في الوقتِ ذاتِه أشعرُ أنّي لا أنتمي إلى أيّ مكان. حين أكونُ في فرنسا أُعتَبرُ غريبةً. فأنا عربيّةٌ وُلدتُ في أميركا. في لبنان، أنا أيضًا غريبةٌ. تصرّفاتي وطريقةُ كلامي تفضَحُني."

"هل هذا الشعورُ صعبٌ؟" يسألُ أنَس.

"لا أعرفُ إن كان بإمكاني أن أصفَه بالصعبِ. إنّه شعورٌ مختلِفٌ. أنا دائمًا أشعرُ بأنّي الأُخرى، المميَّزة عن المجموعة. وهذا يشعرُني بأنّني مُبعَدةٌ نوعًا ما."

"حتّى مع مجموعةِ أصدقاءَ مثلِنا مثلاً؟" يَسألُ أحمد.

"همم، نوعًا ما. هناك الكثيرُ من النكاتِ أو التلميحاتِ الكلاميّة التي لا أفهمُها، وبخاصّة تلك التي ترتكزُ على ذِكرِ أغنيَة محليّة مثلًا، أو دعاية قديمة على التلفزيون،

أو شخصيَّة معروفة في المجتمع. أشعرُ أيضًا هنا بأنّ نوعَ النشاطات التي يقومُ بها الأصدقاءُ يَختلفُ قليلاً. أنا أخرجُ مع نسرين ورفاقِها، وكلُّ ما نفعلُه هو الذهابُ إلى مقاه في النهار وإلى نواد ليليَة في المساء، وأحيانًا إلى السينما. في باريس كان لدينا خيارات لا تُحصى للقِيام بنشاطات ثَقافيَة، مثل حُضورِ المعارضِ الفنيَة والعلميَة ومُشاهدةِ أفلام ذاتِ مستوىً فنّي عال وزيارةِ المتاحِف. كنتُ متّفقةً مع رفاقي هناك على أن نذهبَ كلَّ أوَّلِ سبت من الشهرِ الجديدِ إلى متحفٍ مُختلفٍ. كنّا نحدّد جزءًا من مصروفِنا لذلك، مع أنَّ أسعارَ تذاكِر الدخولِ مُنخفِضةٌ للطلّاب."

"واضِح يا عزيزتي أنّكِ مُعتادة على الحياةِ الثقافيَة الراقيَةِ"، تقولُ نسرين ذلك وهي تُمسّدُ يدي كي أفهمَ أنّها تقولُ ما تقولُه بتحبّبٍ، ثمّ توجّه الحديثَ للآخَرين وهي تضحكُ: "أنا أحتارُ بها حين تتذمَّرُ من كثرةِ جلوسِنا في المقاهي ودردَشاتِنا عن الموضة والريجيم." يُعدِّلُ عمادُ نَظّاراته التي زحلَتْ قليلًا ويعلّقُ: "بالنسبة لنا، أنتِ الفتاةُ الأجنبيَة المثقّفةُ الكول الآتيةُ من أوروبّا."

"وما هو الكول في ذلك؟ في فرنسا أتعلَّقُ بكلِّ ما يُذكّرني بلبنان أو باللغة العربيَة، مِن أشخاص أو موسيقى أو أطعِمة أو أفلام في السينما. وهنا، أجدُ نفسي أنشَدُّ إلى كلِّ ما هو فرنسيّ. لكنْ بالرغم من ذلك، أظنُّ أنّي مَحظوظةٌ نوعًا ما."

"كيف؟" يسألُ أحمد.

"أشعرُ بأنّ هذا التنوّعَ في الخلفيّةِ يُعطيني الشعورَ، إلى حدّ ما، بأنَّ لديَّ قوَّةَ تأقْلُمٍ كبيرةً مع الأماكنِ والناسِ الجُدُد. لو كنتُ أنتَمي مئة في المئة إلى هُويّة واحدة مُحدَّدة، أميركيّة كانت، أو فرنسيّة أو لبنانيّة، لكانَ التأقلمُ في الأماكنِ الجديدةِ صعبًا جدًّا. أعرفُ من أمّي ما عانَته أوّلَ سفرِها إلى أميركا مع أبي. عاشتْ نوعًا من الصدمةِ الثقافيّةِ. كان كلُّ شيء هناك مختلفًا بالنسبةِ لها، حتّى مفهومُ الصداقةِ لدى الناسِ."

ثمّ أخبرُهم عن أوّلِ أسبوعَين وصلتُ فيهما إلى لبنان. "كان آخرُ الصيفِ ولم تبدأ السنةُ الدراسيّةُ بعد. رأتْ أمّي أن تُعَرِّفَني إلى قريبةٍ لها تعمَل في جمعيَّة مع اللاجئين السوريّين في مخيَّم في جبل لبنان. قبلَتْ قريبتُها أن أتطوَّع. هذا أشعرَني بأنّ لبنانيَّتي سوف تفتَح لي أبوابًا هنا، وأنّي غيرُ مختلفةٍ عن الآخرين. لكنْ حين بدأتُ، طفَتِ الاختلافاتُ على السطحِ. لم تكنِ التجرِبَةُ سهلةً أبدًا في ذلك الإطار. مَعرفتي المحدودةُ بالعربيّة لم تُسعِفني في التعامُلِ مع المتطوّعين الشباب السوريّين واللبنانيّين الذين لا يعرفون الإنكليزيّة أو الفرنسيّة. لحُسنِ الظروفِ، التعامُلُ مع الأطفالِ كان أسهَل، فقد شعرتُ بأنّهم يُحسِنون التواصلَ بلغةِ الجسدِ وتعابيرِ الوجهِ أفضلَ من الكبار".

نسترسِلُ في الأحاديثِ، كلٌّ يُعبِّر عن رأيه في الموضوع؛ ممّا يقولُه أنَس: "أنا شخصيًّا أحلمُ أن أسافرَ وأدرسَ في جامعة في ألمانيا، لكنّي لا أظُنّ أنّ ذلك

سيتحقّقُ. إنْ حصلَ وسافرتُ، فعندي شعورٌ بأنّي لن أستصعِبَ أمرَ الاعتيادِ على الحياةِ هناك أبدًا."

يقولُ أحمد: "ولماذا يبقى حلمًا؟ في السنة المقبلة تُنهي المدرسة هنا. ابدأ بالبحثِ عبر الإنترنت عن احتمالاتِ لمتابعةِ دراساتكَ حيث تشاء. من يعلم؟ قد تتمكّنُ من السفر دون أيِّ صعوبات." يبتسمُ أنَس دون تعليق. أشعُره يفكّر، "يا ليت"، لكنّه لا يقولُها. بدلًا من ذلك، يختِم كلامَه بـ: "على كلّ، الآن علينا أن نبذُلَ جهدًا أكبرَ للقيامِ بنشاطاتٍ ذاتِ قيمةٍ ثقافيّةٍ مع لينا. فلو تابغنا بجِدّيّة كلَّ ما يُنظَّم من معارضَ وحفَلات موسيقيّة ومهرجاناتِ أفلام في بيروت، لوَجدنا الكثيرَ منها."

"بكلِّ سعادة"، أجيبُه.

عندها، ينظرُ أنَس إلى ساعتِه ويقولُ: "اعذروني، عليّ أن أغادرَ هذه الجلسةَ التي أتمتّعُ بها كثيرًا."

يتذمَّرُ أحمد: "أنت دومًا هكذا يا أنَس. مُستَعجِلٌ من دون مبرّر." يتجاهلُه أنَس ويُضيفُ موجّهًا كلامَه إليّ وإلى نسرين: "الحديثُ معكما مُمتِعٌ جدًّا. الجلسةُ كانت لطيفةً ومشوِّقةً." ضمنيًّا أشعرُ بأنّه لا يقصِد بكلامِه غيري. أرى نظراتِ مبتسِمةً يتبادلُها أحمدُ وعماد.

أُشيرُ لنسرين بانحناءة بالرأس أن نتركَ المكانَ نحن أيضًا. أبتسمُ وأقولُ بدوري: "حان وقتُ مغادرتِنا أيضًا."

نتركُ نحن الثلاثة المكانَ. أتّصلُ بأمّي لأُعلمَها أنّ سهرتَنا انتهَت، فتقولُ: "دقائق وأكونُ عندَكما." أنَس

ينتظِر مرورَ سيّارةِ سرڤيس تقلّهُ إلى بيتِه. حين يجدُ واحدة، يودِّعُنا بوجهِ بَشوشٍ سعيدٍ، وبكلمةِ "باي"، ملوِّحًا بيدهِ مُبتعدًا ببطء في زحمةِ السيرِ. في الحمرا زحمةٌ حتّى في ساعاتِ الليلِ المتأخِّرةِ. أبقى واقفةً أتبعُه بنظري إلى أن يختفي عند منعطفِ الطريقِ.

12

أنَس

أعودُ من المدرسة سعيدًا اليوم، لقد وزّعوا علينا ورقةَ علاماتِ آخرِ السنة، ونجحتُ بدرجةٍ جيّد جدًّا. من المؤكّدِ أنّ أبي وأمّي سوف يفرحان بالخبرِ. لكنّي أُفاجَأ بعدمِ وجودِ والدَيّ. هما عادةً يكونان في البيت عند الساعة الثالثة مع أختي، ينتظِرونني لتناوُلِ الغَداء معًا حالَ عودتي من المدرسة. أتَّصِلُ بهاتفِ أمّي فأجدُه مغلقًا. لا أحاولُ الاتّصالَ بأبي. ماذا لو حصلَ شجارٌ بينهما وهو غاضبٌ؟ لا أريدُ أن أسمعَ أيَّ شتيمةٍ منه عن أمّي. أتوجّه إلى غرفتي وأفتحُ حاسوبي. أجدُ إيميلًا من أمّي. أمرٌ غريب. هي عادةً لا ترسلُ إليّ الرسائل. أقرأ:

حبيبي أنَس،

أنا عند بيت أهلي. أخبركَ لاحقًا بالأمرِ الذي أغضَبَه هذه المرّة. على كلٍّ، لا تقلق. وضعتُ الطعامَ في الفرن هذا الصباح. أشعِلِ الفرنَ لتسخينِه وتناوَلْ غداءَكَ. أختُكَ معي. سأتّصلُ بكَ لاحقًا.

أمُّك ليلى

أقِفُ في الغرفةِ متجمِّدًا كَمن صعقتْهُ عصا ساحرة. أشعرُ بالخَدَرِ في رأسي، أعجَزُ عن التحليل. هذه أوّلُ مرّة تتجرَّأ فيها أمّي وتتركُ البيتَ. هذا جيّدٌ لكنّه يعني

أنّ الأمورَ سيّئةٌ جدًّا أيضًا. كلُّ ما يُهمُّني هو سلامتُها. أرمي الحقيبةَ التي لا تزالُ معلّقةً على ظهري، وأعدو الأدراجَ نازِلاً كالرمحِ. أنتظِرُ أكثرَ من عشر دقائق قبل أن أجدَ سيّارةَ أجرة تُقِلُّني إلى بيتِ جدّي. الأفكارُ تتسارَعُ في رأسي. ماذا لو طلّقَ أهلي فعلاً؟ هل سيَرضى أبي بسهولة أن أعيشَ ودارين مع أمّي؟ هل سيطرُدُنا جميعًا من البيتِ ويتزوّج بأخرى؟ هل سيحرِمُني المصروفَ ويرفضُ دفعَ أقساط تعليمي إن قرّرتُ تركَه أيضًا؟ نَظْرَتي الآن للأمورِ مُشوَّشة. حين توقِفُ لي سيّارةُ سرڤيس أخيرًا، أتردّدُ عند إعطاءِ السائقِ اسمَ وُجهَتي، فانشغالُ بالي أنساني إلى أين أنا ذاهبٌ.

تغمُرُني أمّي حين تراني. "لمَ أتيتَ يا حبيبي؟" تقولُ ذلك بينما أرى في عينَيها أنّها حقيقةً كانت تُحبِّذُ مجيئي. كم أتمنّى أن أوفِّرَ لها راحةَ البالِ التي تستحِقُّها. أجيبُها: "أيُّ سؤالٍ هذا يا ماما؟" تبتسِمُ من خِلال وجهِها الحزينِ: "ادخُل، دارين في غرفةِ الجلوسِ مع جدِّك" جدّتي التي لا تتحمَّس لرؤيتي كعادتِها، تبدو مُقَطّبة الحاجِبَين مُشنَّجةَ الأطرافِ. تأخذُ أمّي من يدِها وتتّجِهان إلى غرفة داخليّة لتُكمِلا نِقاشًا قطعَهُ وُصولي. يُغلَقُ البابُ خلفَهُما بعنف.

"تعالَ أعطِني قُبلةً، اشتَقتُ إلى رائحتكَ"، يقولُ جدّي مع ابتسامَةٍ خفيفةٍ الجملةُ التي يكرِّرُها دائمًا حين يمرُّ أكثرُ من أسبوعٍ دون أن أراه.

أختي تجلسُ بجانبِه. أجلسُ وأضعُ ذراعي حولَ كتفِها. لا نتبادلُ الكلامَ، بل نسمَعُ نِقاشَ جدَّتي وأمّي الحادّ. يُمسِكُ جدّي بيدي ويَشُدُّ عليها بينما نسمعُ جدّتي توبِّخُ: "المرأة الذكيَّة لا تتركُ بيتَ زوجِها أبدًا. لن تَبقي هنا حتّى لِيلةٍ واحدةٍ يا ليلى. هل فَهِمتِ؟ نحن عائلة محترَمة، النساءُ فيها لا يُطلَّقن... تصرَّفي كسيّدةِ بيت واسمعي كلامَ زوجِك. كلُّ المشاكلِ تأتي من صالون تزيين الشعر. أنتِ لستِ بحاجةٍ إلى المالِ، فلا ضرورةَ للعملِ."

جدّتي مسترسِلةٌ، لكنّ أمّي تقاطِعُها: "أنتِ امرأة وعليكِ أن تَفهميني بدلَ مُهاجَمَتي. لي الحقُّ في أن أعيشَ الحياةَ التي أختارُها، يكفي ذُلًّا مع هذا الرجلِ. للصبرِ حدودٌ يا ماما. كيف تقبَلين أن تعيشَ ابنتُكِ مع رجلٍ ظالمٍ وقاسٍ إلى هذه الدرجة؟"

يستمرُّ النقاشُ، أنظرُ إلى جدّي فأراهُ مُغمضَ العينَين. أشعرُ أنّ ما بيده حيلةٌ مع جدّتي. أسألُه: "ما رأيُكَ يا جدّي؟"

يقولُ: "سعادةُ ابنتي أهمّ من إرضاء مئةِ رجلٍ. لكنّكَ تسمَعُ جدّتَكَ. الطلاقُ عارٌ لا يُغتَفرُ."

"ولماذا تفكّرُ جدّتي هكذا؟ ولمَ لا تقولُ أنتَ شيئًا؟"

يبتسِمُ وهو يرفعُ كتِفَيه: "جدّتُكَ تخشى كلامَ العائلةِ والناسِ من حولِها إن طُلّقتْ ابنتُها."

أفهَمُ من كلامِه، دون كلامٍ مُباشِرٍ، أنّه ضعيفٌ أمامَ جدّتي.

تخرجُ أمّي من الغرفةِ وكُحلُ عينَيها الأخضرُ يَسيلُ على خدَّيها مع خطّ الدموعِ المستقيم، وخصلاتُ شعرِها الجانبيّةُ مُبلّلة، بعضها يغطّي طرفَي وجهِها. لا تمسحُ دموعَها أو تحاولُ إخفاءَها. تودِّعُ أباها وتشيرُ لي ولدارين بأن نتبعَها. علينا المغادرة.

لا نتبادلُ أيَّ كلمة ونحن نخرجُ من المبنى.

"دعيني أقودُ السيّارة"، أقترِحُ عليها بالرغم من أنّها عادةً لا توافقُ على ذلك مع أنّني سائقٌ جيّدٌ، وذلك لأنّه لا يُسمَح لي قانونيًا بالقيادةِ قبل بلوغي الثامنة عشرة والحصولِ على إجازةِ سَوْق. لكن هذه المرّة لا تمانعُ: "على كلِّ حال المسافةُ قصيرةٌ، لا بأس. أعبُرِ الشارعَ فقط إلى جهةِ كورنيش البحر."

أفعلُ ما تطلبُه منّي، وبعد أن أركنَ السيّارة، تقترحُ: "ننزِلُ لنتمشّى قليلًا؟ إنّي بحاجةٍ لذلك." أختي تقولُ إنّها تفضّل الانتظارَ في السيّارة. تَنحَني أمّي إلى حيث تجلسُ دارين في الخلف، وتغمرُها بشدَّة: "سيكونُ كلُّ شيء على ما يُرام يا حبيبتي"، تقول لها. "هل سنعودُ إلى البيت اليوم؟" تسألُ دارين. تَهُزُّ أمّي برأسِها. لا أفهَمُ إن كان ذلك يعني نعم أم لا. تُمسِكُ أختي من يدِها لتُشَجِّعَها على مُغادَرة السيّارة. نتمشّى نحن الثلاثة. نتأمّلُ أمواجَ البحرِ العاليةَ بفعلِ الرياحِ الربيعيّةِ القويّةِ دون أيِّ كلمةٍ. لا أريدُ أن أسألَ أمّي عمّا حصلَ. لا أريدُ أن أعرفَ ماذا حصلَ. لكنّها بعد أكثر من ربع ساعة، تتكلّمُ: "غضبَ لأنّه قرأ رسالةً على هاتفي من زميلي

سامر، أرسلَها الأسبوع الماضي. في الرسالةِ، يُخبرُني أنّنا حصلْنا على دعوةِ لورشةِ تدريبيّةِ في تركيَا، ثمّ يُنهي رسالتَه برَسْمِ وجه مُبتَسِم، ووجه آخر يرسِلُ قبلَة. قرأ أبوكَ أيضًا ردّي الإيجابي برغبتي في السفر مع فريقِ العملِ لحُضورِ الورشةِ."

لا أرُدّ. أشعرُ بأنَّ الأمرَ خطيرٌ هذه المرّة. كم أخافُ عليها منه.

تُكمِلُ أمّي بصوتٍ خافِتٍ كي لا تسمعَ أختي: "أخُذه فِكْره إلى مكان آخر بسببِ شدّةِ غيرتِه. اتّهمَني بأنّي أخطّطُ للسفرِ مع سامر لسببٍ عاطفيّ."

"كيف حصلَ على هاتفكِ يا ماما؟"

"نسيتُه في البيتِ اليومَ. أتى إلى صالون التزيين. كان يبتسِمُ كعادتِه عند وجودِ غرباء؛ حيّا الموظّفين بلطف، قبّلَني أمامهم على خدّيّ، ثمّ طلبَ رؤيتي على انفرادٍ في غرفةٍ داخليّةٍ. هناك كمَشَ مِعصَمي بقوّةٍ مؤلِمَةٍ، وبدأ يهدّدُ ويتوعّدُ بأذيّتي حالما أعودُ إلى البيت، ووصفَني بأشنَع الصفات. خائنة، كاذِبة، عاهِرة."

"لن أدعَهُ يَلمِسُكِ"، أقولُ بصوت حزين لكنْ واثق.

تتوقّفُ أمّي عن المشي، تنظُر إليّ مع ابتسامةٍ خفيفةٍ ودمعٌ في عينَيها يبرُق من خلال أخضرِهما. تضمُّني إليها بقُوّة، وبيدِها الأُخرى تضمُّ دارين. ألفُّ ذراعَيّ حولها. تبكي بصمت. أجبرُ نفسي على عدم فعلِ الشيء نفسِه.

تطلبُ أمّي أن نتّجِهَ إلى بيتِ تانت داليدا في شارعِ السادات. من حُسنِ الحظّ أنّنا لا نجدُ أحمد أو أباه في

البيت؛ صديقةُ أمّي الحميمةُ تعرِف كلَّ شيء عنها، لكنّي على يقينٍ من أنّها لا تشارِكُ ما تعرِفُه مع ابنِها وزوجِها. فمِن خِلال أحاديثِ أحمد، من الواضحِ أنّ ليس لديه أيُّ فكرةٍ عن علاقةِ أبوَيّ غير الطبيعيّة.

تستقبلُنا تانت داليدا بلُطفِها المعهودِ، ثمّ تطلبُ أمّي منّي ومن دارين أن ننتظرَها على الشرفةِ. أراقبُها من خلف الزجاجِ تجلسُ مَحنِيَةَ الرأسِ حزينةً. تبدأ الكلامَ. تنفعلُ. تانت داليدا تُواسيها بغَمرةٍ. تقدّمُ لها الماء. تمسكُ بيدِها وتقولُ كلامًا لا أسمعُه.

أستغِلُّ الظرفَ لأقومَ ببحثٍ سريعٍ على الانترنيت في هاتفي. أطبعُ الكلمات التالية: زوجة+مُعنّفة+لبنان، ثمّ أضغطُ زرَّ البحثِ. تبرزُ أمامي صفحةَ منظّمَةٍ اسمُها **تمكين**. أدوّنُ عنوانَها بنيّةِ الحديثِ مع أمي عن أمرِها. بعد ذلك أقرّرُ أن أتّصلَ بأبي. لا أعرفُ ماذا سأقولُ له، لكنّي أشعرُ بأنّ عليَّ الكلامَ معه. لا يردُّ إلّا بعد أن يرنَّ الهاتفُ أكثر من ستّ مرّات. "أين أمّكَ؟ إن كانت معكَ قلْ لها أن تعودَ إلى البيت فورًا."

أشعرُ بالعرقِ ينسابُ على فقراتِ ظهري، فقرة فقرة، وبطعمِ مَعدنيّ في فمي. آخذُ نفَسًا عميقًا، وأرُدُّ بنَبْرةٍ حادّةٍ وصوتٍ عالٍ أحاولُ أن يخرُج كصوتِ الرجال الواثقين الأقوياء: "لا". أسمعُه يصيحُ مستنكِرًا: "كيف تجرؤ يا ابنَ الكلب؟ يا ويلَكَ منّي حين أراكَ. أنتَ وأمّكَ."

أقفلُ الخطّ. قلبي يطرقُ. ماذا فعلتُ؟ أيُّ موقفٍ وضعتُ نفسي فيه؟ أقلِّبُ هاتفي بعصبيّةٍ بين أصابعي مفكّرًا في ما عليّ فعلُه الآن. تُلاحظُ أختي توتُّري فتَشدُّ على ذراعي وقد انتقل خوفي إليها. أبي قاسٍ معها أيضًا، فهو أبدى غضبَه نحوَها وعبَّر عنه بالضربِ عدّةَ مرّات، كما كان يفعلُ معي، بخاصّةٍ بعدما بلغتُ سنَّ الثانية عشرة ودخلتُ مرحلةَ المراهقةِ. كنتُ أشعرُ بأنّهُ لا يطيقُ مدى تعلُّقي بأمّي. كان يلومُها، ولا يزال. يكرِّر دومًا: "كيف تريدين منه أن يصبحَ رجلاً إن كنتِ تُدَلّلينَه بهذا الشكل؟ تعطينَه ما يريدُ ولا تحاسبينَه على طَيشِه."

أمّا أختي، فلا يطيقُ نَقّها بالأخصّ حين تصرُّ في طلبِها لأمرٍ ما. أوّل مرّة صفعَها كانت في السابعة. كانت تُصِرّ عليه أن يأخذَها إلى مدينة الملاهي لأنّها تَشعرُ بالمللِ، وصديقتها هناك مع عائلتِها. رفضَ أوّلًا بكلمة "لا"، ثمّ بـ"حلّي عنّي"، وحين أكملَت إصرارَها صفعَها بكلِّ قوّتِه، ثمّ أمسكَ بها من كتِفَيها وبدأ يهزُّها بعنفٍ وهو يصرُخ في وجهِها: "كُفّي عن النقّ! خلص. خلص..." لم تبكِ دارين يومَها. وقفتْ كالصنمِ بعدما أفلتَها من بين يدَيه. أذكرُ أنّي وأمّي صُعِقْنا لِفعْلتِه. فهي المدلّلةُ لديه التي لم يمسَّها بسوء من قبل. بعد تلك الحادثةِ توقّفتْ دارين عن الكلامِ لمدّة شهرٍ تقريبًا. لم تَعُدْ تتكلّمُ مع أحدٍ غير أمّي. كانت تَهمِسُ في أذنِها إن أرادَتْ شيئًا ما. خفتُ عليها، وحاولتُ الكلامَ معها، لكنْ كلّما اقتربتُ منها دفعَتني. قالت يومَها أمّي إنّ علينا أن نأخذَها إلى

طبيبٍ نفسيٍّ. لكنّنا لم نفعلْ. أبي رفَض الفكرةَ: "هي تتغنّجُ. الحقُّ عليكِ يا ليلى. هذه نتيجةُ تربيتِكِ لها. غدًا تُغيِّر رأيَها وتتكلّمُ. أساسًا، أطبّاء النفسِ لا ينفَعونَ. يُخَرِّبون العقولَ بدل إصلاحِها." أخجَلُ حين أسمعُ أبي يقولُ هذا الكلامَ. كيف خُدِعَتْ أمّي به وتزوّجَته؟ ألم تَرَه عندها على حقيقتِه؟ أم هو تغيَّر مع الأيّام؟

لماذا قلتُ "لا"؟ لماذا أقفلتُ الخطّ؟ عواقبُ فعلَتي ستكونُ كبيرةً. أستجمِعُ قوّتي، آخُذ نَفَسًا عميقًا مجدّدًا وأطلبُ رقمَه ثانيةً. وقبل أن يقولَ "ألو"، أقول: "لن أعودَ بأمّي إلّا إن وعدتَني بأنّكَ لن تَمَسَّها. هي مُتعبةٌ وبحاجةٍ إلى راحةٍ." في تلك اللحظة، وقبل أن يُجيبَني، تخرجُ أمّي إلى الشرفةِ وتأخُذ منّي الهاتف: "نحن في طريقِنا. دقائق ونكونُ في البيت."

لا أصدّقُ ما أسمعُه. "ماما كيف يُمكِن ذلك؟"

"ماذا تريدُني أن أفعلَ؟ أين أذهبُ يا حبيبي. هي عاصفةٌ وستهدأ. أنا المخطئة. ما كان عليّ أن أفكّر حتّى في إمكانيّة السفرِ للدورة."

"هناك حلولٌ يا ماما. يوجد منظّمةٌ تقدّمُ المساعدَة للنساءِ المعـ... ". لا أقوى على إكمالِ تلك الكلمةِ. لكنّ أمّي تفهمُ عمّا أتكلّمُ. تبتسِمُ من خِلال بؤسِها وتُفهِمُني بتَلويحَةٍ من يدِها بأنّها غيرُ مهتمّةٍ بمعرفةِ المزيدِ عن الأمر.

استسلامُها يغيظُني وأرى أنّه يغيظُ تانت داليدا أيضًا. فهي تهزُّ رأسَها استنكارًا لقرارِ أمّي. أنا لا أفهمُ هذا

القرار، لكنّي لا أعارضُ ما تريدُه. نخرجُ من بيتِ الصديقةِ بصَمت. بانكِسار. تأخذُ منّي أمّي مفتاحَ السيّارة، تجلسُ في مقعدِ السائقِ. تنطلقُ بنا إلى البيت.

13

لينا

عمّي أمجد سيزورُنا اليوم عند الساعة الرابعة، أي تمامًا في توقيتِ صفِّ اليوغا. إذًا سأتغيَّبُ عن الصفّ، شيء لا أحبُّ فعلَه أبدًا. لكن هذا عمّي الذي إن طلبَ أن يأتي فعلينا أنا ونادية أن نكونَ في البيتِ مع أمّي. هو يبدو للناسِ لطيفًا، لكنَّه بالفعلِ، يتحكَّمُ بحياتِنا منذ أن تُوفّي أبي. أتى إلى فرنسا وساعدَ أمّي في الإجراءات الرسميّة لنقلِ جُثمانِ أبي إلى بيروت، وبعد انتهاء مراسِمِ الدفنِ بأيّام، وقبل توقُّفِ توافُدِ المعزّين إلى بيتِنا، سمعتُ نِقاشًا حادًّا حصلَ بينه وبين أمّي. يومَها قالَ لها إن لم ترجِع بنا إلى البلد فلن ترى قرشًا واحدًا من أموالِ أبي. هدَّدَها بحِرمانِنا من المال، مالِ أبي، إن لم ننتَقِلْ للعيشِ في لبنان. يومَها لم أفهم ما دَخلُه بنا بالضبط.

حين أخبرتنا أمّي أنّنا سنعودُ لفترةٍ قصيرةٍ إلى باريس لتركِ الشقّة وأخذِ أغراضِنا للانتقالِ إلى بيروت، ثُرنا أنا ونادية عليها. بكينا واعترضْنا وكرِهنا عمَّنا لسُلطتِه علينا. هذا العمُّ الذي كنّا نمضي في بيتِه في الجبلِ أسعدَ الأيّام خِلال عُطَلنا الصيفيّة. هذا العمُّ الذي كان أبي يحبُّه كثيرًا ويثقُ به، إلى درجة أنّه وكّلَهُ رسميًّا بأرض يملكُها في الجبل، وبالشقّة التي يملكُها في

بيروت، عدا عن أنّه حوَّلَ له، قبل اشتدادِ المرضِ عليه بقليل، مبلَغًا ماليًّا كي يستثمِره له.

"في القانونِ اللبناني، الأخُ هو الوَصِيُّ على الأبناء القاصِرين وهو الوريثُ الشرعيّ في حالِ عدم وجود ابن ذكر للميّت. قانونُنا ظالم في حقّ المرأة في كثير من الأمور، وموضوعُ الميراث أحدُها"، هذا ما فسَّرَتْه لنا أمّي في ذلك الحين. الآن نحن، أنا وأمّي وأختي، تحت رحمةِ عمّي. هذه الشقّةُ التي نعيشُ فيها، والتي اشتراها أبي وأمّي منذ أكثرَ من خمس سنوات، صارتْ من أملاكِ عمّي؛ فقد سجَّلَها باسمِهِ بعد وفاة أبي، وهو الآن يعتبرُنا ضيوفًا في شقّته! ابنتُه سحر تصغرُني بسنة. كنّا مقرَّبتَين جدًّا، نمضي أوقاتًا كثيرة معًا. كانت هي وابنةُ خالتي نسرين قريبتَيّ وصديقتَيّ الوحيدتَين في صيفيّات لبنان. وقد زارَتني سحر مرّتَين في باريس خِلال عطلٍ مدرسيّة.

اليومَ، بعدَ كلِّ ما يَفعلُه بنا عمّي، صارتْ علاقتي بسحر جافّة. مع أنّي أحبُّها كثيرًا ولا دَخْلَ لها بالذي يقومُ به أبوها، لكنّ غضبي من عمّي يجعلُني أفضِّل عدمَ التقرُّب منها.

أقرِّرُ أن أكتُبَ رسالةً هاتفيّة إلى أنَس كي أعلِمَه بغيابي عن الصفّ وعن السبب. أفعل، فيأتي الردّ: **أنا أيضًا سأتغيَّب**، دون مبرِّرات. أستغربُ الأمر، لأنّه كان قد ذكَر عند لقائنا الأخير أنّه يتمتّع كثيرًا بمُمارسة اليوغا، ولا ينوي الانقطاعَ عن ذلك. قد يكون مريضًا؟

لكنّنا ما زلنا في يوم الثلاثاء؛ حتّى إن كان مريضًا فهو سوف يتحسَّنُ خلال ثلاثة أيّام. قد يكون تضايقَ من شيء قلتُه أو فعلتُه ويريدُ أن يمارِسَ اليوغا في مكانٍ آخر؟ قد يكونُ حزينًا أو مُحبَطًا لسبب ما؟ أو ربّما، ببَساطة، نوى ألّا يذهبَ بسبب تغيُّبي أنا... تساؤلاتي تدفعُني إلى أن أمسِكَ سمّاعةَ الهاتف وأطلُبَه. أدخلُ غرفتي لأفعلَ ذلك. يحصلُ شيء غريب حين يرُدُّ على اتّصالي. أشعرُ به بارِدًا، ليس الشابَّ اللطيفَ الذي أعرفُه. يقولُ: "هاي. لا أستطيعُ الكلام." أتلعثَمُ في الردّ: "آ... أوكي... آسفة." فيقول: "أوكي باي" ويُقفِلُ الخطّ. أجلِسُ على سريري ببُطء وهاتفي لا يزالُ في يدي محاولَةً فهمَ ما حصلَ للتوّ. بالتأكيد هو غاضبٌ منّي، لكن لماذا؟ أحاولُ أن أسترجعَ حواراتِنا. آخر مرّة تحادَثْنا كان عاديًّا جدًّا؛ حتّى إنّه ضحكَ على نكاتٍ أخبرتُه إيّاها وضحكْتُ بدوري على نكاتِه. ماذا حصلَ؟ كيف يسمحُ لنفسِه بالكلام معي بهذه الطريقة؟ من يظنُّ نفسَه؟

يصلُ عمّي أمجد مع زوجتِه وابنِه سعيد وابنتِه سحر. نجلسُ أنا وأختي في الصالون على كنبةٍ واحدة بجانبِ أمّنا. يتحدّثُ الكبارُ عن عُمومِيّات. لا أخبارَ خاصّة ولا ابتسامات، لا بيني وبين سحَر، ولا بين نادية وسعيد أو أمّي وامرأةِ عمّي. زيارةٌ مُربِكَة. لا أعرفُ لماذا يزورُنا عمّي مع كلِّ أفرادِ عائلتِه يومَ موعدِ إعطاءِ أمّي المصروفَ الشهريّ. يقول إنّ هذه حِصّتُنا من أموال أبي،

وإنّه سيسعى دائمًا إلى تأمينِها لنا. يقولُ ذلك وكأنّه يتصدَّقُ علينا. ما أوقحَه! كيف لا تصرُخُ أمّي في وجهِه؟ كيف لا تطرُده من بيتِها. مسكينة. ليس بيدِها حيلة. هي مُضطرَّة للمُسايَرة لكي تأخذَ ولو جزءًا بسيطًا من حقوقنا الطبيعيّة.

14

أنَس

لا تمرُّ هذه العاصفة كما مرّت عواصفُ كثيرةٌ من قبلِها. هذه المرّة، ينجحُ أبي في إجبارِ أمّي على التوقُّف عن العمَل. لا تسمعُ منّي ولا تدعُني أتدخّلُ في قرارِها بالرضوخِ لمشيئتِه. نُلاحِظ أنا ودارين أنّ أبانا صار أهدأ نسبيًّا، مع أنّ الأمر لا يخلو من تذمُّرٍ يوميّ من أتفَهِ الأمور، مصحوبٍ بالشتائم أحيانًا. في يومٍ، بعد مُشكلةٍ يفتعِلُها أبي لأنّ أمّي نسيَت أن تضعَ الملحَ في الطبخة، تهمِسُ لي أختي بعد أن تدخُلَ غرفتي وتُقفِلَ البابَ وراءها: "أظنُّ أنّ بابا لا يَغارُ على ماما فقط، بل يغارُ منها لأنّها كانت محبوبةً في عملها ولأنّها تحبُّ الناسَ وتعرفُ كيف تبتسِم". أرفَعُ كفّي لأضربَها بكفٍّ دارين كعلامةِ مُوافَقة على كلِّ ما قالَته، ثمّ نغرَقُ في نوبةِ ضَحِك لا نعرِفُ سبَبَها بالضبط.

لا تبدو أمّي مرتاحةً هذه الأيّام. هي لا تُبدي أيَّ حماسةٍ لأيِّ شيء تقومُ به أو نقولُه أو نأكلُه. تَكبتُ حاجتَها للعمل وللخروجِ مع الأصدقاء، أمرٌ منعَها أبي عنه بعد حادثة الرسالة الهاتفيّة. كم تبدو حزينةً ومُحبَطة. ممّا أكتبُه في دفتر يوميّاتي في هذه الفترة: **هل هو طبيعيّ أم مريض؟ أخشى على نفسي منه.**

ليس غضبُه هو ما أخشاه. بيني وبين نفسي، في عُمق أعماقِ نفسي، تُرعبُني أحيانًا فكرةُ أن أصبحَ مثلَه حين أكبر. هل يمكن؟ أعِدُني بأنّي سأكونُ أبًا مِثاليًا وأخًا جيّدًا وزوجًا لطيفًا ومتفهِّمًا طوالَ حياتي.

تحت هذه الفقرة، أجِدُني أرسمُ دائرةً وفيها أرسُم نفسي صغيرًا مُكوَّرًا على نفسي.

الصمتُ ثقيلٌ في الأمسيات في بيتنا. أنا وأمّي لا نَجرُؤ على الكلام بوجودِ أبي، لأنّه يتدخَّلُ ويُعلِّقُ على كلِّ شاردة وواردة. لذلك أتقصَّد الخروجَ مع أحمد وعماد كلّما سنحَت لي الفرصة، مع أنّي أشعرُ بقليل من الذنب. لا أحبُّ أن أتركَ أمّي وأختي وحيدتَين معه.

حين ألتقي بلينا عند بابِ صفّ اليوغا، أتقدَّم منها للسلام، فأجدُها مُرتبِكةً. وبعد سؤالِها عن السبب، تذكّرني بحديثنا الأخير على الهاتف، فأرتبِكُ بدَوري. كيف أبرِّر لها ذلك؟ "أع... أعتذر لينا، اتّصلتِ في وقت حَرِج فلم أعرِف كيف أجيب." أرتاحُ لعدم سؤالها عن تفاصيلَ أكثر؛ تقبَلُ اعتذاري وتمازحُني: "في المرّة المقبلةِ حين تتّصلُ بكَ فتاةٌ رائعة مثلي، عليك أن تنسى كلَّ شيء وتُركِّزَ على الحديث معها." "حاضِر آنسَتي"، أقولُ مع انحناءةٍ ضامًّا كفَّيَّ معًا كما يفعلُ اليابانيّون عند التحيّة أو الرضوخِ لآخر.

بعد صفّ اليوغا، صارَ من عادتِنا أن نبقى في شارع الحمرا ساعة إضافيّة نشربُ الكابوتشينو، نتكلّمُ عن أمورِ الحياةِ في بيروت وعن الدرسِ والمستقبَل.

تُحدِّثُني لينا عمّا تذكُره من طفولتِها في أميركا وعن انتقالِهم إلى فرنسا حين كانت في السابعةِ من العمر، وعن معاناتِها وأختِها في البداية من عدم إتقانِ اللغة الفرنسيّة. تذكرُ لينا أنّ أوائلَ أيّامِ المدرسةِ هناك كانت صعبةً جدًّا، حيث لم تكنْ تفهمُ أيَّ كلمةٍ لا على المعلّمةِ ولا على الأطفالِ. لكنّها في خِلال أشهرٍ قليلةٍ اكتسبَت ما يكفيها لتتبُّعِ الدروسِ وللتحدّثِ بطلاقةٍ مع رفاقِها. تخبرُني أيضًا عن الجوّ الهادئِ السعيدِ الذي تذكُره يخيِّم على عائلتِها الصغيرة. يبدو أنّ أباها كان يحبُّ أمَها كثيرًا، كما كان يصِرّ على السفَر لاكتشافِ بلدٍ أوروبيّ جديدٍ في كلّ إجازةٍ تُتاحُ لهم. تخبرُني عن مرضِ أبيها وما عاناهُ من آلام قبل وفاتِه.

أمّا أنا فلا أتكلّمُ عن نفسي بقدر ما تفعلُ هي. كَوْني أعاني في البيتِ من ظرفٍ خاصٍّ يجعلُني كَتومًا، خائفًا من فضحِ أمري عفويًّا إن أخبرتُ عن حادثةٍ ما أو ممارسةٍ ما. أتكلّمُ قليلًا عن سُفُني وعن أختي وحبِّها للكتب وعن علاقتي بأحمد وعماد. وممّا يَطْغى على أحاديثِنا، مواضيعُ ترتبطُ بأنواع الموسيقى التي يحبُّها كلٌّ مِنّا وبالكتُب التي نَقرأها.

كم أجدُ الحديثَ معها مُمتِعًا وعميقًا في آن واحد. في ظرْف أسابيعَ قليلة، تتكاثرُ المواعيدُ بيننا لِتتعدّى أيّامِ الجُمعة. نلتقي ثلاثَ مرّات أو أربعًا في الأسبوع. أحيانًا للدرسِ، لكن غالبًا لمُجرّد قضاءِ الوقت معًا. مع لينا، يمرُّ الوقتُ بسرعة. وفي كلِّ مرّة، تردُها أكثرُ من

رسالةٍ من أمّها، تطمَئنُّ عنها وتذكّرُها بموعدِ مجيئها لتأخُذَها إلى البيت.

صرتُ متعلّقًا بها كثيرًا. في الأيّام التي لا أراها فيها، أشتاقُ إليها. نتبادَلُ العديدَ من الرسائلِ الهاتفيّة خِلال النهار. هذه الرسائلُ تبرّد حرارةَ شوقي لها، نوعًا ما فقط. هل هذا هو ما يسمّونَه الحبّ؟ جميلٌ هذا الشعور.

15

لينا

صرتُ متعلّقةً بأنَس كثيرًا. في الأيّام التي لا أراهُ فيها، أشتاقُ إليه. نتبادَلُ العديدَ من الرسائلِ الهاتفيّة خِلال النهار. هذه الرسائلُ تبرِّد حرارةَ شوقي، نوعًا ما فقط. هل هذا هو ما يسمّونَه الحبّ؟ جميلٌ هذا الشعور.

16

أنَس

في يومٍ، يعودُ أبي إلى البيت ويُعلِن أنّه مسافرٌ إلى ألمانيا في رحلة عمَل. يوصيني: "أنت رجلُ البيت في غيابي. انتَبِه إلى أمّكَ وأختكَ جيّدًا."

أنا رجلُ البيت؟ أنتبِهُ إلى أمّي؟ عجيبٌ هذا الرجل. هل نَسِيَ أنّه يُناديني بالطفلِ المدَلَّل حين يَغضبُ من أمرٍ قمتُ به لا يعجِبُه؟ بالفاشلِ، بالصبيّ الذي لا يَنفَع في شيء، بالولدِ الذي يحتاجُ إلى الكثيرِ من فتّ الخبزِ كي يُصبِحَ "بَني آدم"؟ هل نَسِيَ كلَّ ذلك فيجعلَني اليومَ رجلًا؟ مسؤولاً عن أمّي وأختي؟

لا أرُدّ على كلامِه إلّا بالانسِحاب إلى غرفتي. يلحَق بي، ويقولُ مادًّا سبّابتَه صوبَ وجهي: "اسمع يا أنَس. أفهمتَ ما قلتُه لكَ؟ في غيابي أنتَ المسؤولُ عن البيت. لا تخرجْ في الأمسياتِ أو تدعْ أمَّكَ وأختكَ وحدَهُما في البيت. لا أريدُ مقاهي ولا سهرًا في غيابي. أفهمتَ؟"

17

لينا

حين أركَبُ بالسيّارة مع أمّي بعد زيارة لنسرين، وقبل أن تُحيّيَني وأقبّلها على خدّها كعادتي، تقول: "عندي خبرٌ جيّد. لقد وافقوا على طلبي للتطوُّع والعملِ في **منظَّمة تمكين** التي تُعنى بالمرأة المعنَّفة."

"لماذا لا تبحثين عن عملٍ بأجرٍ يا ماما؟"

سؤالي يجعلُها تقطِّبُ حاجبَيْها. تنظُر ناحيَتي. تجيبُني: "أنتِ تعلَمين أنّي لا أجيدُ أيَّ شيء غيرَ الرقص. ومن الصعبِ أن أعملَ في هذا الحقلِ الآن، بخاصّةٍ بعدَ انقطاعي عن الممارسة لسنينَ عديدة".

أذكرُ آخرَ عَرض راقِص قامَت به أمّي مع مجموعتِها حين كنتُ صغيرةً وكنّا لا نزال نعيش في أميركا. كنتُ أراها ترقُص الباليه، أراقِبُ خطواتِها الرشيقةَ وتَمايُلَ يدَيها. كنتُ أتخيّلُ أنّها سوفَ تعلو عن الأرض مِن خفّةِ حركاتِها وسلاسَتِها. أذكرُ شعوري يومَها. شعورٌ بالفخرِ وبالسعادةِ لكوْنِ الراقصةِ التي يُصفِّقُ لها الجمهورُ هي أمّي.

بعد بضعِ دقائقَ، وبعدَ فُسحةِ الذكرياتِ التي من المؤكّد أنّها وردَتْها كما وردَتْني، تقولُ أمّي وكأنّها تبرِّر لنفسِها: "تعرِفين أنّني بعد انتقالنا مع المرحوم أبيكِ إلى

فرنسا لم أمارسِ الرقصَ إلّا لفترة قصيرة." "لا أذكرُ ذلك"، أقولُ.

"بعدما تعلَّمتُ الفرنسيّةَ وانتسبتُ إلى مجموعةِ راقِصةٍ، لم أتمكَّنْ من المثابرةِ معها بسببِ أسفارِها المتكرِّرةِ. لم يكُنْ باستطاعتي أن أتركَكِ أنتِ ونادية لفتراتٍ طويلةٍ، بخاصّةٍ أنّ أسفارَ أبيكِ المتعلّقةَ بالعمل كانت كثيرةً. لذلك اعتزلتُ الرقصَ كُليًّا... وهكذا مرَّتِ السنواتُ."

"على كلٍّ، مباركٌ انتسابُكِ لهذه المنظّمة يا ماما."

"شكرًا حبيبتي. سأبدأ الدوامَ غدًا. هذا يعني أنّي لن أتمكّن من توصيلِك إلى مواعيدِك في كلّ مرّة تخرُجين فيها."

"ياي... وأخيرًا. ستدعينَني آخذُ سيّارةَ أجرةٍ إذًا! حانَ الوقتُ يا ماما لكي تسمَحي لي بالتجوالِ وحدي في المدينة."

تضحكُ أمّي. "نعم. لكنْ عِديني أن تَكوني حَذِرةً وألّا تركبي سيّارةَ أجرة يقودُها شابٌّ. انتَقي دائمًا سيّارة بسائقٍ عجوز. هؤلاء أأمن."

"ماما. أظنُّ أنّكِ مخطئةٌ. ما تقولينَه اسمُه تنميطٌ. من قال إنّ كلَّ كبيرٍ في السنّ لطيفٌ ومهذّبٌ وكلَّ سائقٍ شابٌّ ليس كذلك؟"

"ممم. معكِ حقّ. كلُّ قصدي هو أن تكوني مُتنبِّهةً في كلّ الأوقات."

أقفِزُ نحو أمّي وأقبّلُها: "سأكونُ دومًا بخير. أعدكِ بذلك يا أجملَ ماما."

18

أنَس

في خِلال غيابِ أبي، أقضي الكثيرَ من الوقتِ في البيتِ. ليس لأنّه أوصاني بأن أكونَ "رجُلَ" البيت، بل لأنّ جوَّ البيتِ هادئٌ كلّ الوقت. أختي تضعُ الموسيقى وترقُص في الصالون، أمّي تغنّي وهي تطبخُ أو تنظّف، وأنا أرَكّبُ سُفني في المطبخِ لأكون قريبًا منها. نتحدّثُ، أنا أشربُ العصيرَ وهي الشاي، تُساعدني في تلصيقِ قطعِ السفنِ وفي تلوينِ ما يَنتهي منها، وأنا أساعِدُها في غسلِ الخُضار وتقطيعِها. هذا أمرٌ لا أفعلُه أبدًا بوجود أبي. بالنسبة له، مكانُ الصبيّ ليس في المطبخ. في يوم، حين كنتُ في سنّ التاسعةِ، رآني أجلي الصحونَ بعد العشاء. تسلَّلَ من الخلفِ ولم أشعُر إلّا بأصابعِه تمسِكُ بأذُني اليُسرى وتَعصِرُها فتَلويها بقوّة. "كم مرَّةً قلتُ لكَ الصبيَةُ لا يجلون. هذا عملُ النساء. اخرُج من هنا في الحال." ما زالتْ تلك الجملةُ تطنّ في أذُني، التي الْتوَتْ، كلّما غسَلتُ الصحون خفيةً عنه. هذه الحادثةُ مُدَوَّنةٌ في أحدِ دفاترِ يوميّاتي، وقد وضعتُ حول الخبرِ دائرةً حمراءَ من شدّة غضبي حينَها.

يومَ السبت تقرّر أمّي أن تدعو تانت داليدا وأحمد إلى الغداء. أفرحُ حين تشجّعُني على دعوةِ لينا أيضًا.

أتَّصلُ بها فترحّبُ بالفكرةِ بدون تردُّد. الجوُّ سيكونُ ملائمًا لتعريفِ أمّي إلى لينا. بوجودِ أبي لا أدعو أحدًا من أصدقائي إلى بيتِنا، خوفًا من أن يقومَ بأمرٍ يُحرِجُني أو يُحرِجُ أمّي أو دارين أمامهم، مع أنّه عادةً يأخذُ حذَره عند وجودِ غرباء، يتصرَّفُ بلطفٍ مع أمّي، وغالبًا ما يكونُ مِخورَ نكاتِ الجلسةِ فيُضحكُ الجميع.

تقولُ أمّي إنّها لا تحتاجُ إلى مُساعدتي في المطبخ، فأقرّر أن أصنَع قالبَ كاتو. "موافِقة، لكنْ عليكَ ألّا تسبِّب الفوضى في المطبَخ"، تقولُ وهي تدلُّني على مكانِ الطحينِ والسكّر والكاكاو.

يصلُ أحمد مع تانت داليدا أوّلاً، ثمّ تأتي لينا وبيدها كاتو شوكولاتة. "صنعتُه بنفسي"، تقولُ. فأضحكُ وأردّ: "أنا أيضًا صنعتُ كاتو شوكولاتة." أشكرُها وآخذُه منها. يعلّقُ أحمد: "سنُجري مباراةً بعد الغداء لنُقرِّرَ كاتو من هو الأطيَب."

ما أجملَ هذا النهار وما أخفَّ الهواء الذي يتَسَرَّب إلى البيت من كلِّ النوافِذ المفتوحة. كم أنا مُتشوِّقٌ إلى حياة هانئة كحياتنا اليوم. أمّي وتانت داليدا تغرَقان في أحاديثَ لا نهايةَ لها، أوّلاً على انفراد في المطبخ وهما تحضّران الأطباق، وبعدها على الشرفةِ حيث تتَناولانِ القهوةَ قبل الغداء.

دردشاتٌ كثيرة حول مائدة الطعام. أرى وجهَ أمّي مُزيَّنًا بأحلى ابتسامة. صديقايَ يمدَحان الطبخَ الشهيّ، ودارين الجالسةُ بجانِب لينا تتسلّى في تصحيحِ لهجتِها

العربيّة. "لا نقول كلاتة، نقولُ ثلاثة.... هذه عَيني وليسَت أيني... بطيخ لا بتيخ..."

"دعيها وشأنها يا دارين"، أقولُ خوفًا من أن تكونَ لينا قد تضايقتْ.

"لا، بالعكس. أختُك ظريفة. دغها تُدرِّبني على اللفظِ الصحيح."

لا داعي لذِكرِ خسارتي الفادحةِ في مباراة الكاتو بعد الغداء. يأتي التصويتُ بالإجماعِ على أنّ لينا هي الرابحة. هذه النتيجةُ تتضمّنُ صوتي أيضًا، ما يُضحِكُ الجميع. "هذه أوّلُ مرّة أرى شخصًا يُصوِّت في أمر ضِدَ نفسِه"، تقولُ تانت داليدا.

"الحقُّ حقَ يا تانت"، أجيبُها.

قبل المغادرة تقترحُ تانت داليدا: "ما رأيُكم أن نذهبَ غدًا إلى مدينةِ جُبيل للغداء؟ الطقسُ جميلٌ مُناسِبٌ للتنُّزه."

لا أجيبُ. أنتظرُ ردَّ أمّي. أكثرُ من يتحمّسُ هو أختي. "فكرةٌ رائعة. هل بإمكاني أن أدعو صديقتي عبير؟" تنظرُ أمّي في عينَي صديقتِها نظرةً قلِقة، ولا تقولُ شيئًا. فتُطَمئنُها بهمسٍ أسمَعُه: "نُزهةٌ بسيطةٌ، لا داعي للتفكير كثيرًا."

"عليَّ أن آخُذ إذنَ أمّي. أجيبُكم مساءً"، تقول لينا موجِّهةً الحديثَ إليَّ وإلى أحمد.

ليلاً، بينما تشاهدُ أمّي حلقةً من مسلسل تركيّ تتابِعُه، تناديني وتطلبُ منّي أن أجلسَ بجانبها.

"أنَس، لا نعرفُ متى يعودُ أبوكَ. ماذا لو عاد غدًا في غيابِنا؟"

"مُمكن. ولكن ماذا لو لم يعُد. لماذا نُضيِّع على أنفسنا نهارَ مرَح مع الأصدقاء؟"

"أوكي. نذهَب. الله يستر."

19

لينا

أصلُ إلى البيت متحمِّسةً لإخبارِ أمّي ونادية عن النهار الذي قضيتُه في بيت أنَس مع أمّه والأصدقاء. لكنَّ أمّي ليست موجودةً. أذكرُ أنّها تعمَل مُتأخِّرة اليومَ في **منظّمة تمكين** بدلاً من زميلة مُتغيِّبة. أدخلُ غرفةَ نادية وأجلِسُ بجانبِها بينما تتصفَّحُ الإنترنت. نُدردِشُ بعضَ الوقت، فهي تخبِرُني عن زملائها في الجامعة وتريني صوَرهُم في الفايسبوك، وأنا أسترسلُ في إخبارِها عن تفاصيلِ نهاري.

بعدها بساعتَين تصلُ أمّي. "كم أنا تعبة وجائعة"، تقولُ وهي تَرمي حقيبةَ يدِها على سريرِها وتَزتَمي فوقَه. ندخلُ أنا ونادية غرفتَها ونتَمدَّدُ بجانبِها.

"أمّا أنا فمُتخَمةٌ من الطعام الشهيّ الذي أكَلتُه في بيت أنَس."

"أنا جائعةٌ أيضًا ولا شيءَ يؤكَلُ في البرّاد"، تقولُ أختي. "ما رأيُكِ يا ماما أن نطلُب الطعامَ الصينيّ؟ لقد اشتقتُ إليه كثيرًا."

"فكرةٌ رائعة"، تقولُ أمّي. "أتَذكُران المطعمَ الصينيّ تحت بيتِنا في باريس؟ كنّا نتذمّرُ من روائحِ الطبخ التي

تتسَرَّبُ منه إلى شقّتِنا، فيرسِلُ إلينا، من وقت إلى آخر، ليُرضِيَنا، وجبةً تكفينا نحن الأربعة."

"أذكرُ تمامًا"، أجيب. "هل تَظنّين أنّنا سنعودُ يومًا إلى باريس يا ماما؟"

"لا أعرفُ يا حبيبتي. لكنّي بصراحة مزعوجةٌ كثيرًا من وَضعِنا هنا. لا أفهمُ كيف تغيَّر عمُّك معنا بعد وفاة أبيكِ."

نصمُت. نتوقّفُ عن الحركة. كأنّنا نحن الثلاث نعودُ بالزمانِ وبالمكانِ إلى شقّتنا في باريس.

أختي هي الأولى التي تكسِرُ هذا الانتقالَ. "أنا جائعة. سأتّصلُ بالمطعمِ."

تطلبُ بعض الأطباقِ الصينيّة وتُعلِمُنا بأنّها ستُوصَّل بعد أربعينَ دقيقة. في خِلال انتظارنا، نبقى مستَلقِيات على السرير؛ تحدّثُنا أمّي عن نهارها. تخبرُنا عن المرأة التي أتَتِ اليومَ إلى **منظّمة تمكين**: "وصلتْ تلك المسكينةُ مُتورِّمةَ العينَين، وجسدُها مليءٌ بآثارِ لكمات ازرقَّ على أثَرها جِلدُها."

"شيءٌ فظيعٌ يا ماما"، تقولُ نادية. "يجب أن يُسجَن الرجلُ الذي يضرِبُ زوجتَه."

"لماذا تبقى المرأةُ مع الرجل وهو يضرِبُها؟" أسألُ. تنظرُ إليّ أمّي وتجيبُ: "لمئة سببٍ وسببٍ يا حبيبتي. الأمورُ معقّدةٌ جدًّا. هناك نساءٌ لا يَملكنَ وظيفةً أو مَورِدَ عيشٍ بديلًا لحياتهنّ مع الزوج، وهناك علاقاتٌ نفسيّة معقّدة بين الزوجَين بحيث أنَّ المرأةَ تَشعرُ بتعلّقٍ

عاطفيّ بالرجلِ الذي يعنّفُها، فلا تتَصوَّرُ أنّها تستطيعُ العيشَ من دونه. في حالةِ المرأة اليوم، هي من أسرةٍ فقيرةٍ، ليست مُتعلّمةً، لا تعمَلُ، ولديها ثلاثةُ أطفال. الزوجُ يهدّدُها بحزمانها من أطفالِها إنْ غادرتْه."

أفكّرُ في هذه المرأةِ وأسألُ: "وماذا سيَحُلُّ بها الآن؟"

"نحن في المنظّمة دورُنا حمايتُها. من الجيّد أنّها تركتْ بيتَها؛ سنُؤمّن لها مأوىً تبقى فيه إلى أن تتَدبَّر وضعَها. عندنا فريقٌ سيساعِدُها على إيجادِ عمَل، والمحاميَة ستعملُ على رفع قضيّة طلاق من الزوجِ وتحصيلِ حقِّ حضانةِ أطفالِها."

"ما هذا المجتمعُ الذكوريّ؟ في فرنسا لا يحصلُ ذلك"، أقولُ. تجيبُني أمّي: "بالطبع يحصلُ. تعنيفُ المرأةِ أمرٌ موجودٌ في كلِّ المجتمَعات، ليس فقط عندنا في الشرق. في البرتغال، حصل أكثرُ من 100 حالةِ قتلِ زوجٍ لزوجتِه في السنةِ الماضية مثلاً. وفي فرنسا أكثرُ من 150 امرأة تُقتَلُ كلَّ سنةٍ على يدِ الزوج؛ في الولايات المتّحدة، الرقمُ أضعافُ ذلك. الفرقُ أنّ القاتلَ هناك يُحاكَم، بينما عندنا، القاتلُ يُبَرَّأ في كثير من الأحيان، حيث يُلفّقُ هو ومحاميه أكاذيبَ تَتَّهِم المرأةَ بالخيانَة، فتُصنَّفُ جريمتُه بجريمةِ شرفٍ."

"هل جريمةُ الشرفِ أمرٌ مقبولٌ في المجتمعِ وفي القانونِ؟"

"للأسفِ، هي لا تعَدُّ كأيِّ جريمةِ قتلٍ أخرى. العقوباتُ إن حصلتْ، تكون مُخفَّفةً جدًّا."

تُخيفُني هذه الأرقام. أفكّرُ في المرأةِ التي تكلّمتْ عنها أمّي. أين ستنامُ الليلةَ؟ هل أطفالُها يبكون في هذه اللحظةِ؟ هل يضرِبُهم الأبُ أيضًا؟ أنفُض رأسي وكأنّني بذلك سأُخرِجُ منه الأفكارَ القاسيةَ هذه.

"لم تسأليني يا ماما عن نهاري في بيت أنَس."

"آه، صحيح. أخبريني."

أحدّثُها عن الذين كانوا هناك وعن الطعامِ الشهيّ والوقتِ الممتِع الذي قضيتُه هناك، ثمّ أتذكّر دعوةَ أنَس إلى جُبيل.

"إن كانتْ أمُّه وصديقتُها معكم، فلا بأس. أنا مُتأكّدة من أنّكِ ستُحبّين مدينةَ جُبيل. هل تذكُرينَها؟ سخنا فيها خِلال إحدى زياراتِنا للبنان حين كنتِ صغيرة."

"لا أذكرُها. سألتقِط صورًا وأريكُما غدًا." أقفِز عن السرير لأبحثَ عن هاتفي وأبعثَ برسالةٍ إلى أنَس.

20

أنَس

تصِلُ تانت داليدا مع زوجِها وأحمد، فيَجدونَنا في انتظارِهم في سيّارة أمّي. كنتُ قد دَعوتُ عماد بالأمس لصُحبتِنا. أهلُ عبير رفضوا أن تأتي معنا، لذلك دارين عابسة غيرُ متحمِّسة. أهمِس في أذُنِها: "سأدَعُكِ تجلِسين في المقعدِ الأماميّ." بذلك أضربُ عصفورَين بحجرٍ واحد. أُرضي دارين وأجلسُ في المقعدِ الخلفيّ جنب لينا. يذهبُ عماد مع أحمد في السيّارة الأُخرى.

في مدينة جُبيل، نَمشي في الأسواق القديمة، نتوقَّفُ عند مَحالِّها الصغيرة نستَكشِفُ ما يبيعونَه من تِذكاراتٍ. تقودُنا تانت داليدا وزوجُها إلى مطعمِ سمكٍ مشهورٍ على الميناء.

أشعرُ في هذا النهارِ كأنّي سافرتُ إلى بلدٍ آخر. جميلٌ شعوري. بعد الغداء، نتركُ الكبارَ يشربون القهوةَ، ونقرِّرُ نحن الأربعة الذهابَ لاستكشافِ طرقات مختلفة. قبل أن نغادِرَ، أرى دارين تقرأ. أنزعُ من بين يدَيها الكتابَ الذي لم يُفارِقْها اليومَ، وأجرُّها من يدِها لتأتي معنا. لا تُمانِعُ. تبتسمُ. تُبقي يدَها بيَدي وتمسكُ لينا باليَد الثانية. أراها مَرِحَةً بالمشي بيننا، ومن وقتٍ إلى آخر تُلقي نظرةَ

العارِفةِ بما نشعرُ به أنا ولينا تجاهَ بعضِنا. حين تُلاحِظُ لينا ذلك تَغمِزُها، ما يحوِّلُ ابتسامةَ دارين إلى ضحِكٍ.

نصلُ إلى شاطئٍ رمليٍّ، فتقولُ لينا: "ليتَنا أحضَرْنا ثيابَ السباحةِ. الطقسُ دافِئٌ والبحرُ مُغرٍ جدًّا." فأجيبُها: "نحن سنسبحُ بثِيابِنا. ما رأيكم يا شباب؟" تقولُ لينا: "أتحدّاكم! هيّا مَن مِنكُم الأجرأ في ذلك؟" لا نفكّر كثيرًا. "الأمرُ ليس بهذه الصعوبةِ"، أقولُ. ثمّ نخلَع قُمصانَنا، نحن الفرسان الثلاثة، ونركضُ صوْبَ البحر. ينزِع عمادُ نظّاراتِه ويرميها. تلتَقِطُها دارين. تجلسُ لينا ودارين على الرمال، تُخرِجُ لينا هاتفَها وتبدأ بالتقاطِ صوَرنا بينما نحن نحاوِلُ رشَّ الماء عليهما. لينا تنجَحُ في تفادينا في كلِّ مرّةٍ، لكن دارين تتبلَّلُ وتتقصّدُ الاقترابَ من الماء أكثرَ كي تَخطى بكمّ أكبرَ من ماءِ البحر.

لا نعودُ إلى بيروت إلّا بعد غروبِ الشمسِ. نوصلُ لينا إلى بيتِها، وحين نصلُ إلى شقّتِنا نجدُ بابَ المدخلِ مفتوحًا!

أبي على كنبةِ غرفةِ الجلوسِ في وضعيّةِ الانقضاضِ.

في لحَظاتٍ، ودون أيّ سلامٍ أو كلامٍ، لا أعودُ أرى ما الذي يحدُثُ بوضوحٍ. يهجُمُ أبي على أمّي من دونِ مُقدّمات. يَستخدِمُ كلّ أعضاءِ جسمِهِ للانقضاضِ عليها بلا رحمة.

"أين كنتِ يا سافلةُ منذ الصباح؟ ابنُكِ الفاسدُ هذا خَذَلني... أنا الذي أطعِمُهُ وألبِسُه وأعلّمُه يَخذُلني ويخرجُ عن طاعتي؟ سأريكُما نجومَ الظهر. أنتِ وهو!"

أمّي تصرُخ، تُحاولُ حِمايةَ وجهِها بحقيبةِ يدِها، تقولُ إنّها كانت في جُبيل معنا ومع عائلةٍ تانت داليدا. يخورُ كالثور: "لا تَلفِظي اسمَ تلكَ المرأةِ على لسانِكِ. هي التي تُفسِدُكِ. تُحرّضُكِ على الخروجِ عن طاعةِ زوجِكِ وتلهيكِ عن بيتِك." أختي تصرُخ، أذُناها مسدودَتان بكفَّيها وعيناها مغلقَتان معصورَتان. تتسمَّرُ في مكانِها غيرَ قادرةٍ على الهرَب إلى غرفتِها كما تفعَلُ في كلّ مرّة. هي خائفةٌ على أمّي. أنا أحشرُ نفسي بين أمّي والوحشِ وأتلقّى كمًّا ليس بالقليلِ من لكَماتِه ومن صُراخِهِ الذي يكادُ يثقُبُ طَبلة أذُني. أشتمُّ رائحةَ إبطِهِ الحادّة وأرى الرَّغوةَ تتَجمّعُ على طرفَي شفتَيه من شدّة استِشراسِه.

ما الذي دهاه؟ لماذا كلُّ هذا الغضَب؟ هل خسِرَ صفقةً تجاريّةً فأتى يُفرِغُ غضَبَه بأمّي متذرّعًا بأتفَهِ الأسبابِ؟ وماذا إن ذهبَت في نزهة؟

بينما هو مُنكبٌّ بكلّ قوّتِه على أمّي وأنا أحاولُ حِمايتَها، ينزلقُ بفعلِ جوربَيه فيقعُ بقوّةٍ على ظهِره. وَقعةٌ تَجعلُ الأرضَ تَهتزّ من تحتِ قدميّ. أسمَعُه يَقولُ: "يا ابنَ الكلب... يا ابنَ الكلب." أضحكُ في سرّي كما أفعلُ في كلّ مرّة يناديني فيها بهذه الصفةِ؛ إنْ كنتُ ابنَ الكلبِ فماذا يكون هو؟ أشعرُ بارتباكٍ. ماذا أفعلُ؟ أساعُدهُ على النهوضِ؟ أخرِج أمّي من البيت؟ الدمُ يَسيلُ من شفتِها السفلى. عينُها اليُمنى بدأت تتوَرّم. هل أركضُ إلى المطبَخ وأحضرُ الثلجَ لها؟ تَسبقُني هي إليه. مع أنّها تترنّح في مِشيَتها، فستانُها مُمزّقٌ عندَ الكتِف،

تَقتربُ منه، وتَستجمِعُ قوّتَها لتَشُدَّ ذراعَه وترفَعَه عن الأرض. كيف بإمكانِها فعلُ ذلك؟ أليست حاقدةً عليه؟ ألا تكرهُه؟

لا أجدُ غيرَ أن أساعِدَها على إنهاضِه. تنزلقُ ذِراعُهُ المتعرّقةُ من بين أيدينا مرّتَين قبل أن ننجَحَ في مساعَدتِه على النهوض. يَترنّحُ ويَدُبُّ بثِقْلِه على كنبَتِه وهو يتأوّه من ألمِ ظهرِه: "آخ... أنتِ السببُ يا كلبة."

ما أوقحَه. وقعَ من قوّةِ اندفاعِه في ضَربها ويُحَمِّلها المسؤوليّةَ. ما هذا الإنسان؟ لماذا هو أبي؟ اليومَ رأيتُ وراقبتُ مُعاملةَ زوجٍ التانت داليدا لها. كان ينتَقي لها القِطعةَ الطيّبةَ من السمكةِ، ينزعُ الجِلدَ والعِظامَ قبل أن يضعَها في صحنِها. وحين رفضَتْ أن تأكُلَ البطّيخَ بعد الغداءِ، أصرّ على إطعامِها من صحنِهِ بشوكتِه. لم أرَ أبي ولا أتخيّلُهُ يفعلُ ذلك مع أمّي في حياتِه. أحيانًا أتصوّرُه عجوزًا مُقعدًا، وأتخيّلُ أمّي تتَحكّمُ به، بأوقاتِ إطعامِه، خروجِه من البيت، نومِه... هل سيأتي ذلك اليوم؟ هل أنا ابنٌ سيّئٌ لمجرّد التفكير بهذه الطريقة؟ وهل أكونُ سيّئًا جدًّا لو تمنّيتُ أن نترُكَه أنا وأمّي وأختي إلى الأبد وألّا نسألَ عنه أبدًا؟ ربّما نفعَلُ ذلك حين أتخرّجُ من الجامعةِ وأجدُ عملاً جيّدًا. عندها لن نحتاجَ إلى مالِهِ وأثاثِهِ وجُدرانِ بيتِه.

21

لينا

مساءً، بينما نتناوَلُ العشاءَ في البيت، تَأتي مُخابَرةٌ من عمّي أمجد على هاتفِ أمّي. "خير؟ ماذا يريدُ الآن؟" تقولُ. تدعُ الهاتفَ يرنُّ عدّةَ مرّات. ثمّ تمسحُ يدَيها بمِنديلِ السفرةِ وتضغطُ على زرِّ الإجابةِ. يبدأ كلامُها هادئًا، ثمّ ألاحظُها تحتَدُّ. تنسحِبُ إلى غرفتِها وتُغلِقُ البابَ خلفَها. لا أستطيعُ سَماعَ كلامِها، لكنّي أشعرُ بأنّ الموضوعَ خَطيرٌ. تعودُ إلى طاولةِ الطعام بوجهٍ مُحمَرٍّ ونفَسٍ أشبه باللهاث. تسألُها نادية: "ماذا هناك يا ماما؟ لماذا انفعلْتِ هكذا؟"

"عمّكِ! يريدُ أن يُزوِّجَكِ بابنِه سعيد."

ما إن تقولُ أمّي ذلك حتّى ننفجِرَ أنا وأختي بالضحِكِ. ضحِكٌ هِستيريٌّ طويلٌ ينتهي بدموعٍ في أعيُننا. لا أستطيعُ أن أحدِّدَ نوعَ هذا الضحِكِ. هل هو بفعلِ تَوتُّرِنا واستنكارِنا للموضوعِ؟ هل هو طريقةٌ نُمَوِّه بها خوفَنا من سُلطةِ عمّي؟

تَنظرُ أمّي إلينا مُتعَجّبةً لردّ فِعلِنا هذا.

"لا أفهَمُ لمَ تَضحكان. الموضوعُ في غايةِ الجِدّيّةِ. ألا تُلاحظانِ كيف يتحكّمُ بنا أمجد؟"

"ماما، تعرفين أنّ زواجَ أبناءِ العمّ والخالِ غيرُ مَقبول. فهم من دمٍ واحدٍ، من عائلةٍ واحدةٍ."

"هذا في الغربِ. ليسَ الوضعُ كذلك هنا يا نادية. بالعكس. الكثيرُ من الأسَرِ التقليديّةِ، فقيرةً كانت أو تنتمي إلى الطبقةِ الغنيّةِ، ترى في زَواج الأقاربِ خَيرًا، لأنّ القيَمَ والعاداتِ مُتَشابهة؛ والأهمُّ هو أنّ أموالَ العائلةِ وأملاكَها تبقى داخليّةً."

"لن يُجبرَني على الزواجِ بسعيد، حتّى لو داسَ على رقَبتي يا ماما."

"لن أدعَهُ يمَسُّ شَعرةً واحدة فيكِ يا حبيبتي. علينا أن نفكّرَ معًا كي نجِدَ حلًّا للموقِفِ الذي نحن فيه."

"أنا شخصيًا أظنُّ أنّه يطمَعُ بالحصولِ على جنسيّةٍ أجنبيّةٍ لابنِه، والزواجُ بأختي أفضَلُ طريقة."

"أغلبُ الظنّ معكِ حقّ يا لينا. هو برّرَ قرارَهُ بالقولِ إنّ نادية صارَت في سِنّ الزواج، ويخافُ عليها من التعرُّفِ إلى شابّ غيرِ مُناسب في الجامعة."

"عيدُ ميلادي الثامن عشر كان منذ شهرَين. عن أيّ سنٍّ زواجٍ يتكلّمُ؟"

"لا تشغلا بالَكما. لقد طفحَ الكَيلُ من عمّكما. سأجِدُ طريقةً للتعامُلِ مع هذا الأمر."

أدخلُ غرفتي بعد العشاءِ وأكتبُ رسالةً هاتفيّة لأنَس:

مع أنّ لبنان جميلٌ والحياةُ فيه مسلّيةٌ، لكنّ بعضَ الأمورِ لا تُطاق، وأحيانًا مَصدرُها العائلة. نتكلّم أكثرَ في الموضوع لاحقًا. إلى لقاءٍ قريب.

22

أنَس

مِن حُسنِ الحظّ، إنْ كان بإمكاني قولُ ذلك، أنّ أبي يَقضي أكثرَ من عشرة أيّام مُستلقيًا على ظهِره المتألّم. أقولُ من حُسنِ الحظّ لأنّ ذلك يعني مِساحةَ حريّة متّسعَةً أكثرَ من العادة بالنسبةِ إلى أمّي. صحيح أنّ طلباتِهِ تَكثُر، لكنّه لا يتحرّكُ ولا يَغضَب، لأنّ الغضبَ والاحتقانَ يزيدانِ من آلامِ ظهِره.

في يوم، بعدما تخرجُ أمّي مع دارين إلى السوقِ لشراء حاجيّاتِ البيت، يُناديني أبي: "أحضِر لي مَلفّ حساباتي يا أنَس. هو في أسفلِ طبقةٍ في خِزانتي في الغرفة."

أذهبُ للبحثِ عن طلبِه. أجدُه، لكنّي أجدُ أيضًا عُلبةَ حِذاءٍ تبدو قديمةً. أفتحُها فأجدُها مليئةً بالصوَر. صورٌ لأبي وأسرتِه. أفكّر أنّ أبي هادئٌ اليومَ والجوُّ مُناسِبٌ لأسألَه عن هذه الصوَر. أحضِرُ له الملفَّ الذي طلبَه، حاملاً العُلبةَ تحت إبطي.

"وَجدتُ هذه. هل بالإمكانِ أن أراها؟"

"ما هذا؟ لا أذكرُ ما في العلبة."

أقتربُ منه، أجلسُ على الأرضِ بجانِب الكنبةِ التي يستَلقي عليها وأفتحُ العلبَة.

أناوِلُه رِزمةً من الصوَر. يتَمعَّنُ بها، واحدة... واحدة... ببطء. ينظرُ إليَّ وهو يُريني إحداها: "هذا جدُّك، رَحِمَه الله. كان من أقسى رجالِ العائلة."

"ماذا تَقصِد؟"

"كان كلُّ أبٍ يريدُ تهذيبَ ابنِه لأمرٍ ما في قريتِنا، يرسِلُه إلى أبي ليؤدِّبَه بالفَلْقة."

"الفَلْقة؟"

"يعني يضرِبُه بعَصا من خَيزران على أسفلِ قدمَيه إلى أن يُدمِيَهما."

أتخيَّلُ المشهدَ. كم يبدو ذلك مؤلِمًا. هل كان أبي يؤدَّبُ بالفَلْقة أيضًا؟ هل كان والِده يعنِّفُه؟ حين قرأتُ عن الموضوع على الإنترنت، كتَبوا أنَّ الزوجَ المُعنِّفَ هو في مُعظمِ الأحيان ضحيَّةٌ للعُنفِ في طفولتِه.

لا أدري لماذا، لكنْ تجْتاحُني مَوْجةُ عاطفةٍ وشفَقةٌ كبيرةٌ تِجاهَه. أنسى لِلحظةٍ أنّه يضرِبُ أمّي ويشتمُها، ويضرِبُني أحيانًا ويشتمُني، كما يُخيفُ أختي كثيرًا. أنسى كلَّ ذلك الآن وأشاهُده يتمَعَّنُ في الصوَر وكأنّه غارِقٌ في ذِكرَياتِه السوداء.

أبي لا يُعبِّرُ عن مشاعِره أبدًا. وأنا لا أنتظِرُ مِنه الآن أن يفتَحَ لي قلبَه ويُسِرَّ لي بما لا يَعرِفُه أحدٌ من حَولِنا. والداهُ تُوفِّيا، وعمّي، أخوه الأصغرُ أبو عِماد، نادِرًا ما نَراه، فلا تُفتَح مواضيعُ تتعلَّقُ بطفولتِه أبدًا. لا نعرِفُ كيف كانت علاقتُه بأمِّه، جَدَّتي.

في كلِّ الصوَر التي أراها، يقِفُ أبي بعيدًا عن جدَّتي. الصوَرُ القليلة مع جدّي هي صوَرٌ رسميّة أخِذَتْ في ستوديو تصوير.

أترُكُه غارِقًا في أفكارِه وأحاسيسِه، وأنسَحِبُ إلى غُرفتي. أكتبُ في دَفترِ يوميّاتي:

أفكارٌ وأسئلةٌ كثيرةٌ تَمُرُّ في بالي اليوم. علبةُ الصوَر أذهلَتْني. فتحتُ بابًا كان مُغلَقًا كلَّ حياتي. من المؤكَّد أنّ جدّي كان يُعَنِّف أبي. هل كان يَضرِبُ جدّتي أيضًا؟ أظُنُّ أنْ نعم. لذلك يجدُ أبي أنّ ذلك مَقبولٌ. أتمنّى لو نتحدَّثُ أنا وهو في الموضوع. أرى الحلَّ واضِحًا في رأسي. عليه أن يتبَع عِلاجًا نفسِيًّا كي يَحُلَّ مُشكِلةَ العُنفِ التي يُعاني منها. إنْ فَعَل يرتاحُ ويُريحُنا. إلى متى سيَبقى جوُّ بيتي وحقيقةُ ما يدورُ فيه سِرًّا عن كلِّ الناس؟ لماذا لا نَعيشُ حياةً طبيعيّة؟

ها هو يُناديني.

"أعِد العُلبَةَ إلى مَكانِها وأقْفِلِ الخِزانة."

أعودُ إلى دفتري وكِتابَتي:

تلقَّيتُ الآن رسالةً هاتفيّةً من لينا. استغرَبتُ إثارَتَها لمَوضوعِ الأمورِ العائليّة التي لا تُطاق. هل شعرَتْ بشيء ناحِية عائلتي؟ هل سمعَتْ شيئًا عن أبي؟ عن أمّي؟ لا أظنُّ أنَّ أحدًا يعرفُ عن وضعِنا الخاصّ في البيت. رسالتُها شغلتْ بالي. لم أردَّ عليها إلّا باختصار: أراكِ قريبًا إذًا.

بعد أن يتَعافى من آلامِه ويعودَ إلى قُوَّتِه البدنِيَة المعتادَة، يعودُ أبي إلى تعنيفِهِ المفهود، وأنا إلى تحريضِ أمّي على رفْضِ هذا الوضعِ المُزْري الذي تعيشُ فيه. في يوم، يثورُ عليها ويضرِبُها بعُنْف لأنّها خرجث وتأخَّرث. يتَّهِمُها بأنّها خرجث لتُلاقي صديقًا لها، ذلك الزميلَ السابقَ في صالونِ التزيين، وهي تَترَجّاهُ أن يُصدِّقَ أنّها كانث مع تانت داليدا. أحشرُ نفسي بينَهما وهو ينهالُ عليها باللكَمات، ويَرْمي نحوَها أواني الطبخِ المعدنيَة. تصيبُ إحداها محيطَ عينِها فينشَقُّ الجِلْدُ ويسيلُ دمٌ غزير. أصرُخُ بِهِ أن يتوقَّفَ، وأحضنُ أمّي وأخرِجُها من البيت. أضَعُها في سيّارةِ سِرقيس وأطلبُ منه إيصالَنا إلى مركز المنظَّمة التي تُعنى بحماية المرأة المعنَّفة. حين نصِل، تَعِدُني أمّي بأنّها ستُكلِّمُهم، لكن تطلُبُ منّي العودةَ إلى البيت من أجل أختي.

23

لينا

قبلَ أن أنزِلَ من سيّارة السرڤيس عندَ عودتي إلى البيتِ من السوقِ اليوم، أتنبَّهُ إلى أنّي نسيتُ أخْذَ مِفتاحي صباحَ اليوم. ما العمَلُ؟ أختي ليسَت في البيت، وأمّي في عمَلِها. أتّصِلُ بها، فتُعطي سائقَ السرڤيس تعليماتِ للوصولِ إلى مكتَبِ **منظّمة تمكين**.

هناك، حين أسألُ عنها، تطلبُ منّي الفتاةُ التي تستقبلُني أن أجلسَ في غرفةِ الانتظارِ: "مدام سلام مَشغولةٌ مع امرأة وصلت مُنذ قليل"، تقولُ لي.

أتناولُ مجلّةً عن الطاولة أمامي. هيَ باللغة العربيّة، فلا أقرأ. أتصفّحُ صورَها، ثمّ صورَ مجلّةٍ أخرى، ثمّ أخرى. بعد أكثر من ساعة، تخرُج أمّي مع المرأة. أتجمّدُ في كرسيّي غيرَ قادِرة على الحركةِ أو التنفُّس حين أراها. إنّها تانت ليلى! أمّ أنَس! منظرُها يَصدِمُني. عيناها مُتورّمتان والجلدُ حولَهما فيه جروحٌ تبدو حديثةَ الحصولِ. أخجلُ من وجودي هناك. لا أعرِفُ كيف أتصرّفُ. ألقي عليها التحيّة؟ لا. لا أفعل. أشيحُ بنَظري عنها وأدّعي أنّي لم أرَها.

تقودُها أمّي إلى المحاميَةِ في غرفة مجاوِرة وتعودُ إليّ.

"ما بالُك؟ شحبَ وجهُكِ حين رأيتِ تلك المرأةَ. أعرفُ أنَّ منظرَها مؤلمٌ، لكن هذا ما نراهُ كلَّ يوم هنا."

"أخبرُكِ لاحقًا"، أجيبُها.

"أعطيني خمسَ دقائق لأوَضِّبَ أغراضي وبعدَها نعودُ إلى البيت. فأنا أنْهَيتُ العملَ اليوم."

تُصدَم أمّي بقذرِ ما صُدِمتُ أنا عندما أخبرُها عن هُويَّةِ المرأة في طريقِنا إلى البيت.

"كيف يمكِنُ ذلك؟ ألَم تُلاحِظي شيئًا غيرَ عاديّ في بيتهم؟"

"لم يكنِ الأبُ هناك حينَ زرتُهُم. لم أرهُ أبدًا."

حين نصِلُ إلى البيت تتَّصِلُ أمّي بالمكتَب وتطلبُ الكلام مع تانت ليلى. لكنَّهم يخبرونَها أنَّها قرَرَتِ العَودةَ إلى بيتِها بعدما رفضتْ اقتراحَ المحامِية أن ترفعَ دعوى ضدَّ زوجِها.

تَغْضَبُ أمّي. هي التي لا تَشتُمُ أبدًا، حتّى عمّي المُتَسلِّط، أسمَعُها الآن تشتُمُ الرجالَ الوحوشَ الذين يوصِلونَ المرأةَ إلى حالةِ الضعفِ هذه. لا أجرؤ على الاتّصال بأنَس، مع أنّي قَلِقة كثيرًا عليه. كيف لم أتنَبَّهْ إلى شيء؟ أحاوِل استرجاعَ تصرُّفاتِه وكلامِه. أفكِّرُ في عادَتِه بالنظرِ إلى ساعَتِه كلَ خمسِ دقائق أو أقَلّ. أفَكّرُ في تلك المرّة حين تكلَّم معي باختصار وجَفاء على الهاتف. قال يومَها "اتّصلتِ في وقت حَرِج". هل كانت أمُه تُضرَبُ أمامَه في ذلك الوَقت؟ كم أتَفَهَّمُ قلقَه الدائمَ الآن. دومًا مُستَعجِلٌ للعودةِ إلى البيتِ. ربّما لا يريدُ أن

يتغيَّبَ كثيرًا خوفًا على أمّه. ربَما أبوه يمنعُه من التأخّرِ خارجَ البيتِ. وماذا عن دارين؟ هل تُضرَبُ هي الأخرى؟ لاحظتُ في رحلتِنا إلى جُبيل أنَّها لا تتكلَمُ كثيرًا. تخجَلُ أن تُعبّرَ عن أفكارِها أو عمَا تُحِبُّ أو ما لا تُحِبُّ. يومَها غرِقَتْ في كتابِها. الآن أحلِّلُ أنَّها اعتادَتِ القِراءة وأذمنَتْها كطريقةٍ للهُروبِ من واقعٍ تَعيشُه في البيت. كلُّ هذه التساؤلاتِ تؤرِّقُني. لا أستطيعُ النومَ ليلاً. سأكتَفي ولو باطمئنانٍ سريعٍ على أنَس. أرسِل إليه على الهاتف هاتَين الكلِمتَين: **أنتَ بخير؟**

24

أنَس

بعد أن أتركَ أمّي في أيادٍ أمينة في **منظّمة تمكين**، أعودُ مَشيًا إلى البيت، مع أنَّ المسافةَ طويلةٌ. أحتاجُ إلى هواءِ الطريقِ كي أبدِّلَ هواءَ بيتِنا الثقيلَ بهواء أنقى، ولو أنّه مُلوَّثٌ. فالتلوُّثُ في الطبيعة الخارِجيّة أرحَمُ لي من تَلوُّثِ بيتي بالعُنفِ الذي نعيشُه. كيف يَجرؤ على اتِّهامِها بالخيانَة؟ هذا ما كان ينقُصُنا. هو بالفِعل مريض.

أصلُ إلى البيتِ فلا أجدُه. أسرعُ لأتَفقَّدَ أختي. أراها مُكوَّمةً على سريري، تُحدِّق بسفُني على الرفّ. حين تراني، تقول: "قال إنّه ذاهبٌ عند أصدقائه."

تعودُ أمّي قبل رجوع أبي إلى البيت. لا أعرِفُ إن كان ذلك مِن حُسن الحظّ أو سوئه. كنتُ أتمنّى أن تَبقى في المنظّمة إلى أن تُحَلَّ الأمورُ، لكنْ في الوقت ذاتِه، لا أعرِفُ ماذا سيكون ردُّ فِعلهِ لو عاد ليلًا ولم يجدها في البيت.

تلك الليلةَ، تنامُ أختي بجانِبي. ينتابُني أرَقٌ طوالَ الليلِ. يا لَهُ من نهارٍ أسوَد. بينما أتقلَّبُ في السرير، تَرِدُني رسالةٌ هاتِفيّةٌ من لينا تسألُ عن حالي. هي عادةً تكتُبُ لتُخبرَني عن أمر ما، أو لنتَّفِقَ على مَوعِد. لكنّ رسالتَها هذه، تأتي في وقت أبكي فيه في صَمت، مفكّرًا

بعينَي أمّي المُتورِّمتَين وجِلدِها المُزْرَقّ وأبي الذي لا يرحَمُ. هل شعرَتْ لينا بمأساتي فانشغَل بالُها عَليّ؟ لا أجيبُ على رسالتِها. ماذا بإمكاني أن أقول؟ لا أريدُ أن أكذِبَ ولا أقدِرُ أن أقولَ الحقيقة.

بعد تلك الحادِثة، تعودُ أمّي إلى قلّةِ الكلامِ والتفاعلِ مع العالَمِ الخارِجيّ، سلاحِها الوحيدِ لِتَجنُّبِ المزيدِ من الأسى. أبي لا يسمَحُ لها بالخروجِ من البيت إلّا للضرورة، في حال احتاجَت إلى أغراضٍ للبيتِ أو اضطرَّت إلى إيصالِ أختي إلى مكان ما. يحسبُ غِيابَها بالدقيقة. وخِلال النهارِ، حين يكونُ في مكتبِه، يتَّصِلُ عدّةَ مرّات على هاتفِ البيت للتأكُّد من وُجودِها. كانت من قبل، حين يسافرُ، تتَنشَّقُ أوكسيجينَ الحياة قليلاً، فتصبحُ بَشوشةً تُحِبُّ تشغيلَ الموسيقى في البيت، والخروجَ مع تانت داليدا فتذهبان إلى السينما أو تتناوَلان الغداء معًا. الآن، حتّى في غيابِه أشعُر بإحباطِها. كأنّ أبي نجحَ في الكَبسِ على زرٍّ يُطفئ الحياة في عينَيها.

25

لينا

أعزِم على مُصارَحةِ أنَس بموضوعِ أمّه. لا أعرفُ ما هي الطريقةُ الفُضلى لذلك، لكنّي أعرفُ أنّي سأجدُها. بعد صفِّ اليوغا، نمشي كالعادة إلى **الموكا.** نطلُب الكاپوتشينو ونتحدَّثُ بالعمومِيّات. الطقسُ الحارّ، اليوغا، التلوُّث الزائدُ في بيروت، أخبارُ الحربِ في سوريا، الجريمةُ التي حصلت في مدرسةٍ في أميركا، تذمُّرُ أختي نادية من عدمِ جِديَّةِ الطلّابِ في الجامعةِ؛ فهي الأصغرُ سِنًّا في صُفوفِها، لكنّها الأكثرُ جِديّة واجتهادًا. أغتنِمُ فرصةَ صمتٍ بعضَ اللحظاتِ، أضعُ يدي على يَدِ أنَس المطروحةِ على الطاولة جنب فنجانِه، وأقولُ بجِديّة: "اسمع. لا أعرفُ كيف أبدأ. لكنّي أريدُ أن أصارحكَ بشيء."

"ما هو؟ أخفتِني يا لينا. هل كلُّ شيء على ما يُرام؟"

"لم أخبزكَ من قبل عن السببِ الحقيقيّ لانتقالِنا إلى لبنان. صراحةً، لديَّ عمٌّ مُتسَلِّط استَغلَّ وفاةَ أبي ليضعَ يُده على ميراثِنا."

أُخبِره بكلِّ التفاصيلِ، من يومِ مرضِ أبي ووفاتِه إلى آخرِ مكالمةٍ هاتفيّةٍ لعمّي بخصوصِ زواجِ نادية. يُصغي أنَس إليّ بكلِّ اهتمامٍ، يسألُ من وقتٍ إلى آخر أسئلةً

للاستيضاحِ عن تفاصيلَ أغفلُ عن ذكرِها. حين أنهي كلامي يقولُ: "لينا، أشكركِ على مشارَكتي كلَّ هذا عن حياتِكِ. آسفٌ لكلّ المصاعبِ التي تمُرّين بها مع أسرتِكِ. ما العملُ الآن؟"

"لا أعرفُ. أمّي لم تعدْ قادرةً على تحمُّلِ الوضعِ. الحلُّ هو أن يُعيدَ لنا عمّي أمجد حقَّنا ونستقِلَّ عنه ماديًّا. لكنّني مُقتنِعةٌ بأنّ ذلك لن يحصلَ أبدًا."

"علينا أن نُفكّر معًا"، يقولُ أنَس. "ربّما نجدُ حلًّا."

"هناك أمرٌ آخر... عنكَ"، أضيف.

"عَنّي؟"

أتردّدُ قبل أن أقولَ: "ألَم تقُلْ لكَ أمُّكَ إنّي التقيتُ بها صدفةً؟"

يهزُّ رأسَه نفيًا، يُلقي نظرةً سريعةً إلى ساعتِه دون أن يقرَأ الوقتَ، ويبدأ بهزِّ ساقِه تحت الطاولةِ فيَزتَجُّ فنجانا القهوةِ فوقها. أُكمِلُ: "التقيتُها في مكانِ عملِ أمّي. في مكتبِ **منظّمة تمكين.**"

أشعرُ بأنَس يتوقَّف عن التنَفُّس بفعلِ مفاجأتِه ممّا سمِع. ينظرُ في عينَيّ ثمّ ينقلُ نظَره ليحدِّق في نقطةِ فراغ بيننا. أقومُ من مكاني، أقرِّبُ كُرسيّي إلى جانبه، وأضعُ يَدي على كتفِه: "لا تخجَلْ بذلك. هي مشكلةٌ كبيرة لكنّها ستُحَلّ"، أهمِس له.

لا يجيبُ. أُكمِلُ: "أمّي أكّدتْ لي أنَّ القانونَ يحمي المرأةَ المُعنَّفةَ ومن الممكِنِ تغييرُ وضعِها إن أرادَتْ هي ذلك."

بعد صمتٍ تتخلَّله تنهُداتِ أنَس المتوتِّرَةِ، يتكلَّمُ: "هي أمّي التي نتكلَّمُ عنها. لا شكّ أنّي أريدُ أن توضعَ نِهايةٌ لمأساتِها هذه. لكنَّ أبي شَرِسٌ وهي ضعيفةٌ تِجاهَه، وأهلُها لا يسانِدونَها. أشعرُ بأنّي مسؤولٌ عنها لكنّي لا أعرفُ كيف أتصرَّفُ. أحاولُ أن أحميها منه، أن أشجِّعَها على تَركِه..."

"عندي فِكرة. هل تأتي معي إلى المحامِيَة في **منظّمة تمكين** كي نُناقِشَ السبلَ الممكِنةَ لأمِّك؟"

"آتي لكِنْ أرجوكِ ألّا تذكُري شيئًا عن أمرِ أمّي لأحمد أو عماد أو نسرين."

"لا تشغَلْ بالكَ. لن أبوحَ بكلمةٍ واحِدة. سِرّي معكَ وسرُّكَ معي."

نبتسمُ معًا عند هذه الجملةِ، ويقولُ أنَس عند ذكْرِ نسرين:

"بالمناسبة، ماذا عن نسرين؟ رأيتُها صدفةً في الشارعِ منذ أيّامٍ قليلةٍ، ولاحظْتُ أنّها خسرتْ من وزنِها كثيرًا. هل تتّبِع نظامًا غذائيًّا قاسيًا؟"

أضحَكُ: "نسرين؟ نظامٌ غذائيٌّ قاسٍ؟ لا، أبدًا. لقد أجرَتْ عمليّةَ تصغيرٍ لمعدَتِها أُجبِرتْ بعدها على شربِ السوائلِ لمدّةِ شهرَين. الآن تأكلُ طعامًا عادِيًّا، لكنْ بكميّاتٍ لا تكفي لعصفور."

"الناسُ جائعون في بلادٍ مجاوِرةٍ لبلدِنا، وهنا يُجري الناسُ عمليّاتٍ تمنعُهم عن الأكلِ."

"بالضبط. هذا ليسَ كلَّ شيءٍ فعلَتْه. ألم تُلاحِظْ شيئًا آخر مختلِفًا؟"

"لا."

"أنفُها."

"لم أنتبِه إلى ذلك. لكن هذا لا يفاجئني. الكثيرُ من البنات هنا يُجرينَ هذه العمليّة. كانت أمّي تديرُ صالونًا للتزيينِ من قبل وكانت دومًا تُخبرُني عن هوَس النساءِ بأشكالِهنّ."

"هذا موضوعٌ يغيظُني ولا أحبُّ أن أتحدّثَ مع نسرين عنه. لقد نصحتُها مِرارًا ألّا تقعَ في هذا الفخّ لأنّها لن تكتَفي أبدًا بشكلِها إن بدَأت بالعمليّات. إلّا أنّها تتّهِمُني دومًا بالراديكاليّة وبكوني 'أوروبيّة كثيرًا'."

26

أنَس

وقتَ الغداء، بينما أتناولُ الطعامَ مع أمّي وأبي بهدوءٍ، يلاحِظُ أبي باقةَ زهورٍ في مزهريَّةٍ موضوعَةٍ في وسطِ مائدةِ الطعامِ. يسألُ عنها، فتجيبُ أمي: "هي من جارِنا، قال إنّه قطفَها من أحواضِ شرفتِه."

"من جارِنا؟" يهدُرُ صوتُه. "تتَلقّينَ الزهورَ أيضًا؟ هذا ما كان ينقُصُنا بعد. ومن أين لكِ أن تفتَحي البابَ للجارِ؟ اللهُ أعلمُ ماذا حصلَ غير ذلك. هل دخلَ البيت؟ هل دخلَ غرف...."

"كفى!" تصرخُ أمّي وهي تراه يدفعُ صحنَه من أمامِه بعنفٍ. أراها تخبِّئ وجهَها بكفَّيها احتسابًا لصفعةٍ تبدو وشيكةً.

أقولُ محاولًا تهدئته: "هذا أمرٌ يفعلُه الجار مع معظمِ الجيران في البنايَة. هي هديَة لكلّ أفرادِ البيت." لكن ليس لدى أبي صبرَ الاستماعِ إلى كلامي؛ فثورتُه قد بدأتْ وها هو يَشُنُّ على أمي هجومًا لا أعرفُ إلامَ سيؤدي. الله يستر.

يبدأ بصفعِها ثمّ يتابِعُ ضربَها عَشوائيًا على كلِّ أنحاء جسدِها بكفَّيه الحديديَّتين... أقِفُ بينهُما لأحاوِلَ إبعادَ المُعتَدي فأتلَقّى صفعَةً تصمُّ أذني ودفعَةً تُبعِدُني ثمّ

توقِعُني أرضًا. أنا قَوِيٌّ جَسِديًا لكنّي لا أجرؤ على استخدامِ قُوَّتي ضِدَ أبي. أهابُه. أشعرُ بالرغبةِ في البكاءِ. أكْبتُ تلك الحاجَة. أتذكَّرُ أنّ ذلك سيغيظُه أكثر، وغيظُهُ قد يزيدُ من عزمِه في ضربِ أمّي. لكن حين أراهُ يسحَبُ حِزام بنطلونِه الجِلْدِيّ ليُكمِلَ تعنيفَه، أصرخُ: "حرام عليكَ. يكفي. اترُكْها... اترُكْها." لا يهتمُّ الوَحشُ لصُراخي ولا لصُراخِ أمّي التي تتلقّى اللسَعاتِ المؤلِمة، الواحدةَ تِلوَ الأخرى، وهي تترَجّاه: "خلص... خلص..."

أشكرُ ربّي أنَّ أختي ليست في البيت ولا تَشْهَدُ على كلِّ هذا؛ فهي مَدعُوّةٌ لقَضاءِ النهار عند صديقتِها عبير. أمّا أنا، فتجتاحُني نَوْبةُ غضبٍ عارِمة حِيالَ المشهَد الذي يحدُث أمامي، وبلفحِ البصَرِ، دون أن أعِيَ ما أفعَله، أهجُمُ على أبي لأنتَزِعَ الحِزامَ منه. أحاوِلُ سَحْبَهُ بكلّ عَزْمٍ من بين أصابعِه الغليظةِ المُتَعرِّقة، فيدفَعُني بيدِه الثانية. لا أهتزُّ لدَفْعَتِه، بَل يُقَوّي ذلك من قُدرَتي على الشدّ، فأنجَحُ في الاستيلاءِ على الحِزام. أبتعِدُ خُطوتَين وأقِفُ مُنتَصِبًا، رافِعًا الحِزام في وجهِه. ها نحن واقفان وجهًا لوجهٍ كنِمْرَين يستَعِدّان للانقِضاض الواحدُ على الآخر. الحِزامُ في يدي، والنار تنبَعِثُ من عينَي أبي.

"كيف تَجرؤ يا ابنَ الكلب؟"

أردُّ بصوت يخرُجُ من عُمق حنجرَتي كزئيرِ أسد، صوتٌ لم أكُن أعرِفُ أنّ بإمكاني أن أصدِرَه: "أقولُ لكَ اترُكْها وإلّا كسَّرتُ عظامَك بهذا!"

لا تَستوعِبُ أمّي ما يَجري. تَظُنُّ نفسَها تُهَلْوِس. هي على الأرضِ تَئنُّ من الألَم، الدمُ يَسيلُ من ذراعِها التي هشَّمَها أبي بأظافِره... من خاصرتِها التي تلقَّت ضرباتِ الحِزام؛ شعرُها الأشقَرُ اللامِعُ مبلّلٌ بالدمعِ والدمِ. إنّها أوَّلُ مَرّة تراني فيها أتحدّى أبي بهذا الشكل. هي خائرةُ القوّة لا تَمتلِك القدرَة لتشجيعي على ما أفعَلُه أو لِرَدْعي عمّا أفعَلُه. أرى التردُّد في عينَيها. لا تعرِفُ كيف تتصرَّفُ. لا تُبدي أيَّ حركةٍ.

ما إنْ يَنقضُّ أبي للهُجوم علَيّ بيدَيْه وقدمَيْه وكلِّ جسِده، حتّى أرفعَ الحِزامَ وأُسقِطُهُ بقوّةِ كلِّ مَسامِّ جَسدي على خاصِرَته فيَفقِد توازُنَه ويقعُ. أُحكِمُ قَبضتي على الحِزام، أرفَعُ يَدي لأجمَع أقصى درجةٍ من القوّة وأُسقِطُه على كتفِه اليُمنى، ثمّ اليُسرى، على بطنِه، جانبَيه... لا أستطيعُ أن أوقِف نفسي. عيناي غَبِشَتان من حدّةِ الانفعال. الضرباتُ تتوالى، هو يصرُخ، هي تُغطّي وجهَها بكفَّيها وتصرُخ... دوّامةٌ لا تنتهي إلّا حين تَخورُ كلُّ قوى الوَحْش ويَستسلمُ لآلامِه.

أرمي الحِزامَ من يدي، أساعِدُ أمّي على النهوضِ، وأخرُج معها من البيت آخِذًا حقيبةَ يدِها وحقيبةَ ظهري ومِفتاحَ السيّارة. أتّجِه مُباشَرة إلى المستشفى. فهي تتأوّه من ألم شديد في ضُلوعِها.

في غُرفة الطوارئ، بعدما أسلّمُها للفريق الذي يستقبلُها ويبدأون بتنظيفِ جروحِها، أطلُبُ من موظّفِ الاستعلامات استدعاءَ الشرطة لتقييمِ الحادِثِ ولكتابةِ

تقرير في حالةِ أمّي. هذا أمرٌ قد قَرَأتُ أنّه يُجرى في هذه الحالات، وأريدُه أن يُطبَّق على الفور لحمايتِها. طَفَح كيلي من استهانَةِ أمّي بنفسِها وعُذرِها لأبي في كلِّ مرّة. بعدَ تقرير الشرطةِ وتَقريرِ الطبيب الشرعيّ المُناوِب الذي أخذَ عِدّة صوَرٍ لجروحِ أمّي لتوثيقِ حالتِها، تُنقَل إلى غرفةٍ في المستشفى حيث ستبقى فيها بضعةَ أيّام تحت المُراقبَةِ؛ فهي تعاني من كسرَين في قفصِها الصدريّ وكسرٍ في الكتفِ.

بعد أن أطمئنَّ على أمّي، أتّصلُ بدارين. أريدُها أن تنتظرَني لإحضارِها بنفسي بدلَ العودةِ مع أمّ عبير إلى البيت. لا أخبرُها بأيِّ شيءٍ عبر الهاتف.

أتّصِلُ ببيتِ جدّيَّ لأخبرَهُما بالمستجدّات فيأتيان مُسرِعَين إلى المستشفى. جدّي يُواسي ابنتَه والدمعُ في عينَيه، وجدّتي تتأسّفُ لكنّها لا تَكُفُّ عن تكرارِ فكرةِ عودةِ أمّي إلى البيتِ بعدما تتعافى. قبل مغادرَتِها، تأخُذُ دارين من يَدِها خارجَ الغرفةِ وتقولُ لها: "تبقين معنا يا حبيبتي بضعةَ أيّام إلى أن تتحسَّنَ أمُّك وتعودَ إلى البيت."

"لن أدعَها تعودُ إليه يا جدّتي. ألَمْ تري ما فعلَه بها؟" أقولُ بحدّة.

تردُّ جدّتي بصوتٍ خافِتٍ جدًّا: "شششش... اخفِضْ صوتَكِ. قد يسمعُكَ المُمرِّضون والزوّار الآخرون." ثمّ تُمسِكُني من مِعصمي وتجرُّني إليها لتقترِبَ أكثرَ من

أذُني: "هذا ليس الوقتَ أو المكانَ المناسِبَ لنِقاش ذلك. ابقَ مع أمّكَ الآن، وبعد أن تَخِفَّ آلامُها نتكلّمْ."

أقضي الليلَ على سريرٍ إضافيٍّ يوضَعُ لي بجانِب سريرِها، وصباحًا، ما إنْ تَصِلُ تانت داليدا إلى المستشفى، حتّى أنزِلَ إلى الشارع لأبحَثَ عن فُرن مناقيش. فأنا جائع، لم آكُلْ شيئًا منذ البارحةِ ظهرًا.

27

لينا

أتلقّى مُخابَرةً من أنَس يطلُبُ منّي أن ألقاهُ بعد رُبع ساعة في مقهانا المُعتاد. أتحمّسُ للخُروج لكن أمّي تذكّرُني بأنّ عمّي قد دعانا إلى الغداء في مطعم في الجبل. "من الضروريّ أن أذهبَ يا ماما. يبدو الأمرُ جِدّيًا. كان صوتُ أنَس مضطربًا حين خابرني."

"هل تظنّين أنّ الأمرَ يتعلّق بأمّه؟"

"لا أعرفُ. سأكونُ في الموكا في الحمرا، مُرّي وخُذيني في الطريق إلى المطعم."

"طيّب اذهَبي. سأبعَث رسالةً على هاتفكِ حين أصبحُ قريبةً منكِ."

أصلُ إلى المكانِ المحدّدِ، أجِدُ أنَس سارِحًا في فكِره لا يكادُ يلاحِظُ وصولي. "هووو... أين أنتَ يا أنَس؟" يعتذرُ. أجلِسُ قُبالتَه. "هاتِ، قل لي ما عندكَ. خير؟"

"ما سأقولُه مؤلِمٌ ومُعَقَّد".

يخبرُني عن زهورِ الجارِ وما أدّت إليه، وإلى أين أوْدى بأمّه ردُّ فعلِ أبيه على ذلك. يسردُ لي كلَّ تفاصيلِ العراكِ والحِزامِ والخروجِ من البيت بصوتٍ مُتقطّعٍ ويدَين مُرتعشتَين من شِدّة الانفعال.

أصغي بكلِّ أحاسيسي. بعينَين مصدومتَين وبأذنَين بارزتَين كأذنَي قطَة. أحاولُ أن أتذكَّر أين كنتُ حين حصلَ ذلك مع أنَس. كنتُ مع أختي وأمّي في السوق نشتري هديَّةً لابنةِ عمّي سحَر لمناسبةِ عيدِ ميلادِها اليوم. هذا هو السببُ الظاهرُ لدعوَةِ عمّي غيرِ الاعتياديّة. هو لا يدعونا أبدًا إلى بيتِه أو إلى أيّ مكانٍ آخر. لكنّ برأي أمّي، السببُ الحقيقيُّ هو أن تَجتمِعَ نادية بسعيد. نادية تكَره الفِكرةَ، وكذلك أنا وأمّي. لكنّ ما باليَدِ حيلةٌ، في الوقتِ الحاضِر على الأقلِّ. مسايَرةُ العمِّ ضروريَّةٌ إلى أن تفكّرَ أمّي في حلٍّ آخر يجعلُها تستغْني بالكاملِ عنه وعن هيمنتِه على حياتِنا.

بعد أن يُنهي أنَس سرَده، أتيحُ بعض الوقت كي تهدأ أعصابُه، ثمّ أقولُ: "جيِّد أنّكَ دافعتَ عنها وأخرجْتَها من البيت."

"لا أعرفُ ماذا أفعَلُ الآن. هي تريدُ العودةَ إلى البيت حالما تَخِفُّ آلامُها، لكنّي لن أدعَها تفعلُ ذلك أبدًا."

"ألا تقدِرُ أمُّكَ أن تبقى في بيت جدِّكَ؟"

"جدّتي لن تستقبلَها. بالنسبةِ إليها مكانُ المرأةِ عند زوجِها مهما كانتِ الظروفُ."

"ماذا عن أمِّ أحمد، تانت داليدا؟"

"هي معها الآن. أصرَّتْ عليها مساء أمس حين زارتها أن تنزلَ عندها إلى أن تتدبَّر الأمور، لكن أمّي لن ترتاحَ هناك، بسببِ وجودِ زوجِها. ترى الأمرَ مُحرِجًا."

"إذًا الحلُّ الأفضلُ هو أن نُخبرَ أمّي بالموضوع. بما أنّها ترى الكثيرَ من الحالات المُماثلةِ، من المؤكَّدِ أنّها ستُساعِد. ما رأيكَ؟"

"يبدو أنّ هذا هو الحلُّ الوحيد، لكنّ علينا التصرُّفُ بسُرعة قبل أن تتحسَّنَ ويُجبرَها أبي على العودةِ إلى البيت."

أسألُ إن كان الأبُ قد اتّصَلَ أو زارَ الأمَّ في المستشفى. "اتّصلَ عدّةَ مرّاتٍ يريدُ مُكالمَتَها، لكن في كلِّ مرّةٍ كانت تقولُ له المُمرّضة إنّها نائمةٌ. فتعليماتُ الطبيب تؤكّدُ عدمَ السماحِ له بمُكالمتِها أو زيارَتِها." يصمتُ أنَس بضعَ ثوانٍ وبعدها يكملُ: "بصراحة، لا أعرِفُ كيف سيكونُ لقائي به في المرّة التالية. لم أعُد أنَس الذي يخافُ منه. ضربتُه! أتُقَدّرين معنى ذلك وتداعِياتِه؟"

أهزُّ رأسي أنْ نعم.

"هل يوجد أحدٌ في مكتبِ **منظّمة تمكين** اليوم؟" يسألُني.

أطلبُ رقمَ أمّي للاستفسارِ عن الأمرِ، وحين تسألُني عن سبَبِ سؤالي، يمُدُّ أنَس كفَّه أمامَه إشارةً منه بأنّه لا بأسَ بإخبارِها عن الموضوع.

أقولُ حين تنتهي المُخابرةُ: "ماما تقولُ بما أنَّ أمَّكَ بمأمَنٍ من أبيكَ في المستشفى، لا بأسَ أن ننتظِرَ إلى يومِ الاثنَين للذهابِ إلى **تمكين.** فالعامِلةُ الاجتماعيّةُ والمحامِيَةُ ليستا هناك اليومَ في كلِّ الأحوال."

بعد أكثر من ساعةٍ من الحديثِ في الموضوعِ ذاتِه، أسمَعُ بوقَ سيّارةِ أمّي يحُثُّني على الاستعجالِ. أتنَبَّهُ إلى رسالةٍ وردتني قبل ذلك ولم ألاحظْها. أودِّعُ أنَس وأعِدهُ بالاتّصالِ بعد الغداءِ. أركضُ إلى السيّارة.

حين أصعدُ في المقعدِ الخلفيّ، تسألُني أمّي عن لقائي بأنَس وتفاصيلَ أكثر عن موضوعِ أمّه. نادية لا تتكلّمُ، هي التي في العادة تُبدي رأيَها في كلِّ شيء، ألاحظُها مشبوكةَ اليدَين مُقَطِّبةَ الحاجبَين. الغضبُ واضحٌ عليها. حين أسألُها عن السببِ تجيبُني: "تعرفينَ بالضبط يا لينا. قمرُ زمانِه سعيد هو السببُ."

"لا تقلَقي هكذا يا نادية"، تقولُ أمّي. "لن تُجدي محاولاتُ عمّكِ بشيء."

في المطعمِ، يستقبلُنا عمّي وزوجتُه بابتساماتٍ عريضةٍ. يشيرُ إليّ عمّي أن أجلسَ بجانبِ سحر، بينما يقفُ سعيد ويفسحُ مِساحةً كي تجلسَ نادية إلى جانبه. تفعلُ ذلك دون أن تُزيلَ التكشيرةَ عن وجهِها.

يسألُنا عمّي عن رحلةِ الطريق وإن كُنّا قد واجَهْنا زحمةً في الخروج من بيروت وعن أمورٍ أُخرى تافهةٍ، فتُجيبُه أمّي بجمَلٍ قصيرةٍ مختصَرةٍ. ينقِذُ الجوَّ البارد إتيانُ النادلِ بالمأكولات. صحونٌ مُتتاليةٌ من السلطاتِ والمتبّلاتِ والمَشاوي والمَقالي، لم أرَ بكمّيَتِها في مطعمٍ من قبل. نبدأ بالأكلِ، وتتخلَّلُ جلسةَ الغداءِ أحاديثُ شبهُ رسميّةٍ بين عائلتَينا. أنا لا أبدي أيَّ اهتمامٍ للحديثِ مع سحر التي تسألُني عن أخباري ونشاطاتي. أجيبُها

باختصارٍ شديدٍ، بينما أراقبُ ما يدورُ ناحية نادية وسعيد. نادية ترُدُّ على أسئلة سعيد بنعم أو بلا، دون إضافاتٍ تفسيريّةٍ. لا تنظُر في عينَيه، وكلَّما شعرَتْ بأنّه قرَّب كُرسِيَّه قليلًا صوبَها، تُبعِدُ كُرسِيَّها قليلاً عنه، إلى أن تصبحَ تقريبًا ملاصقةً لأمّي. حين أحوِّلُ نظَري إلى امرأةِ عمّي، أجدُها غارقةً في صحن الدجاج المقليّ، تأكلُه بيدَيها. وعفويًّا، أبدي نظرةَ اشمئزازٍ تلتَقِطُها نادية، ما يدفعُنا نحن الاثنتَين إلى تبادُلِ ابتسامةٍ خَفِيّة. لكنْ في اللحظةِ التالية تتحوَّلُ ابتسامتُنا إلى ضحِكٍ؛ ضحِكٍ خفيفٍ في البدايةِ، سرعانَ ما يتحوَّلُ إلى قهقهةٍ. أمّي تنظر إلينا محاولةً أن تفهمَ ما يجري، امرأةُ عمّي تجمِّدُ يدَها التي ينقُطُ منها الزيتُ بين الصحنِ وفمِها، وعمّي يقول، "ما القصّةُ؟" سحر وسعيد يفهمان. يبين عليهما الحرجَ من فعلِ أمّهما.

"عندنا الضحكُ من دونِ سببٍ من قلّةِ الأدبِ"، يصرُخُ العَمُّ فجأةً موجِّهًا صُراخَه هذا إليَّ وإلى نادية. "عليكما أن تحترِما عاداتِنا هنا. لستُما في باريس حيث لا قيَمَ ولا أخلاقَ..."

"يكفي!" ترُدُّ أمّي بحِدّة. "كيف تسمَحُ لنفسكَ بأن تُهينَ ابنتَيّ بهذا الشكلِ؟ ومن أخبركَ أنّ لا قيَمَ ولا أخلاقَ في الغرب؟ لديهم قيَمٌ ولديهم قوانينُ تَحمي حقوقَ الإنسانِ. الناسُ هناك أشرفُ وأنبَلُ من بعض الناس هنا."

يقِفُ عمّي: "ماذا تقصدين؟ من الذي يُهين من الآن؟ اعرفي حدودَكِ. نحن هنا بالضبطِ كي نجعلَ الأمورَ بين عائلتَينا تسيرُ كما يجبُ. نحن هنا للتحدُّث بخطوبةِ سعيد من نادية."

تقفُ أمّي دافعةً كرسِيَّها بكَعبِ قدمِها إلى الخلفِ فيقعُ ويُحدِثُ ضجّةً تَلفِتُ انتباهَ رُوّادِ المطعمِ. تأخذُ نفَسًا عميقًا، تميلُ بجَسدِها فوقَ الطاولة ناحيةَ العمّ الذي يجلِس قُبالتَها، وتقولُ بصوت خافِتٍ، لكنْ حادّ: "اسمَع. نادية لن تتزوَّجَ من سعيد. لا اليومَ ولا بعدَ مئةِ سنة. أفهمتَ؟ لا شيءَ يجمعُهما."

"تنبّهي إلى كلامِكِ يا امرأة. اعرِفي أنّ عواقِبَ ما تقولينَه كبيرة."

"يا امرأة؟ اسمي سلام يا أستاذ أمجد. طفحَ الكيلُ منكَ ومن أفعالِك. عن أيِّ عواقِبَ تتكلّمُ؟ الأموالُ التي سرَقتَها مِنّا؟ هي سُرقت وانتهى الأمر. أم الشقّة التي سلبتَها من تحتِ أقدامِ ابنتَي أخيكَ وسَجّلتَها باسمِكَ؟ والآنَ ماذا تُريد؟ تَزْويجَ نادية من سعيد؟ تريدُ سلْبَ ابنتي أيضًا. أخوكَ المرحومُ لا يَرضى بما تفعلُه بنا. هو يتَمَلْمَلُ الآن تحت الترابِ من خيانتِكَ له ولأسرَتِه."

يرمي عمّي منديلَ السفرةِ الذي لا يزالُ في يِده، وقبل أن يرُدَّ بأيِّ كلمةٍ، تحمِلُ أمّي حقيبةَ يدِها، وتتركُ المكان، فنلحَقُ بها أنا ونادية بخُطواتٍ سريعةٍ كخُطواتِها.

في السيّارة، تضَعُ يدَيها على المِقوَد قبل أن تُديرَ المفتاحَ لتنطلِقَ. تأخذُ نفَسًا عميقًا، ونفَسًا آخر، ثمّ آخر. تهدأ. نبقى أنا وأختي صامِتتَين ننتظرُها لتقولَ شيئًا. "أوف... أتمنّى ألّا أرى هذا الرجلَ في حياتي بعدَ اليوم." تزُدُّ نادية: "كم أنا فخورةٌ بقُوَّتِكِ يا ماما." وأقولُ أنا: "أتوَّجُكِ المرأةَ الخارِقةَ للعامِ يا ماما! تَحيا سلام! تَحيا سلام!"

28

أنَس

نتّجِهُ أنا ولينا إلى مكتب **منظّمة تمكين** بعد ظهر يومِ الاثنَين، الموعدُ الذي أخذَتْه لنا أمُّها مع المحامِيَة. نجِدُها في انتظارِنا. تستقبلُنا في مكتبِها وتُباشِرُ في الحديث:

"أذكُر حضورَ السيّدة ليلى إلينا منذ فترة. عندها، نصحتُها برفعِ دعوى ضدَّ الزوجِ المُعَنِّفِ فخافَتْ أن تفعَل ذلك. قالت حينها إنّها تعذُره، وإنّها ستفعلُ ما يُرضيه كي لا يغضبَ ثانيةً، كما أنّها لا تريدُ أن تُجَزجِرَ أبا أبنائها إلى المحاكم وربّما السجن. لكن هذه المرّة مختلِفة؛ فهي في المستشفى بضُلوعٍ مُكَسَّرةٍ وجروحٍ ورُضوضٍ في كلِّ جِسمِها. الصوَرُ التي أخذَها الطبيبُ الشرعيُّ لتوثيق حالتها وتلك التي أخذتُها حين زارَتْني، دلائلُ كافيَة لرفْعِ دعوى ضدَّ الزوج، بالإضافة إلى شهادتِكَ وشهادةِ أختِكَ يا أنَس."

في هذه الأثناء، نسمَعُ طرْقًا خفيفًا على باب المكتَب. تُطِلُّ امرأةٌ برأسها من شِقِّ الباب وتستأذِنُ الدخولَ. تُشيرُ إليها المحامية أن تتفضّل.

"أهلاً سلام."

أستنتِجُ بسرعة أنّ هذه السيدةَ هي أمّ لينا. أوّلًا لأنّي أعرِف اسمَها من ابنتِها، ثانيًا لأنّي أعرِفُ أنّها تعمل في

تمكين، وثالثًا والأهمّ، لأنّها تُشبِه لينا كثيرًا، بلونِ عينَيها، بأنفِها، وحتى بمِشيتِها وطريقةِ جلوسِها.

تُكمِل المحامِيَة: "بدايةً، على أمِّكَ يا أنَس عدمُ العودةِ إلى البيتِ مهما كانتِ الظروفُ. أبوكَ مُجرِمٌ بحقِّها وعليها أن تضعَ حَدًّا لعُنفِه. سأحدِّثُها بكلِّ تفاصيلِ الادّعاء ضِّده حين ألتقي بها. عليَّ أن أعرِفَ إن كانت مُستعِدّةً لطلَبِ الطلاقِ أيضًا." ثمّ تقومُ المحامِيَة من خلف مكتبِها، تقتربُ منّي وتضعُ يدَها على كتِفي. تُكمِل: "لا أريدُ أن أخيفَكَ، لكن عليكَ أن تَعِيَ أنّ عُنفَ الزوجِ قد يؤدّي أحيانًا إلى القتل."

أجفَلُ من هذه الكلمة. هل يُحتَمَلُ أن يَصِلَ أبي إلى تلك الدرجةِ من الإجرامِ؟ هل هو الإنسانُ نفسُه الذي، في الصوَرِ وأنا طفلٌ، يحمِلُني بذِراع ويغمرُ أمّي بذراعِه الأخرى مع ابتسامةٍ تبدو من القلبِ؟ هل هو الأبُ ذاتُه الذي كان يعودُ من سفِره في صِغَري متحمِّسًا ليَرانا، حاملًا الهدايا للجميع؟ هل هو نفسُه الذي كان يحاولُ كلَّ جُهِده، ولو بطرُقٍ غير مباشرةٍ، أن يسترضِيَ أمّي كي يُكفِّرَ عن ذنوبِه معها؟ يبدو لي أنّ عنفَه ازدادَ تصاعُدِيًّا مع السنين. فكلّما ابتلعَتْ أمّي تعنيفَه ورضخَت له، ازدادَتْ درجةُ استشراسِه عليها. أقولُ بعد أن تُعطيني المحامِيَة هذه المساحةَ من التفكير: "لكن حتّى إن رفعتْ دعوى ضِدّه، فماذا تفعلُ بعد أن يصدُرَ الحُكم؟"

"حين يُؤخَذ قرارُ المحكمة، يُعاقَبُ هو بالسجنِ وتعودُ هي إلى البيت. وإنْ حصلْنا على قرارِ الطلاق،

تُسوّى الأمورُ بعدها على ضوءِ ما يجِده القاضي مناسِبًا بخصوصِ البيت والأثاثِ وحضانةِ الأبناء. لكنْ في الوقتِ الحاضرِ علينا أن نؤمّنَ لها مكانًا آمنًا منه. فهو سيستاءُ جدًّا منها حين يعلَمُ أنّها تُقاضيهِ وتطلُبُ الطلاقَ. أليسَ لها أهلٌ أو إخوةٌ يدعمونها؟"

"لا"، أجيب. "جدّي هو المتعاطِفُ الوحيد، لكنّ القرارَ لجدّتي، وهي ضدَّ تركِ أمّي بيتَها الزوجيّ."

تتدخّلُ السيّدة سلام: "بإمكانِها أن تَنزِلَ في بيتي إلى أن يتيسَّرَ أمرُها."

أفاجَأ عند سماع هذا الاقتراح، وأرى المفاجأةَ على وجهِ لينا أيضًا. لم نكُن نتوقّعُ هذه المبادرةَ من أمّها أبدًا. تردّ لينا بسرعة: "بالطبعِ. كيف لم يخطُر ذلك في بالي؟"

"هل أنتِ متأكّدة سيّدة سلام؟" أسألُ.

"لدينا غرفةٌ إضافيّة في البيت، وبإمكانِها المكوثُ فيها إلى حين إيجادِ حلٍّ أفضل. الناسُ لبعضِها يا أنَس، وأنتَ صديقُ لينا العزيز."

أبتسمُ حين تقولُ ذلك، لكنْ في الوقتِ ذاتِه، تجتاحُني موجةُ اضطرابٍ أشعُر بها في معِدَتي التي تتقلّصُ وفي قلبي الذي تتسارَع دَقّاتُه.

تُكمِلُ سلام وكأنّها قرأتِ اضطرابي: "وأنتَ وداريـن؟ أتظنُّ أنّكما ستَعودان إلى البيتِ؟"

"دارين ستبقى عند بيتِ جدّي لبَعضِ الوقت، وأنا سأتدبّرُ أمري. لا تَشغَلي بالَكِ."

أفكّر أنّي لن أعودَ إلى البيت ما دام أبي فيه، ولن أذهبَ إلى بيت جدّي. فأنا لن أطيقَ المواعِظَ المُتخلِّفة التي تُعبِّرُ عنها جدّتي صباحًا ظُهرًا ومساءً. بينما تُكمِل المحامِيَةُ حديثَها مع السيّدة سلام بالنسبةِ إلى تفاصيلِ رفعِ الدعوى، أغرَقُ في استذكارِ تفاصيلِ هُجومي على أبي بالحِزام. كيف تجرَّأتُ على ذلك؟ أيُّ قوّة رَكِبَتْني؟ ربّما قوّةٌ غريزيّة للدّفاع عن أعزّ إنسان على قلبي. عن أمّي. أنا أعرفُ أنَّ الأمَّ عادةً، عند الحيوانِ والإنسانِ، هي التي بغريزتِها تَزمي بنَفسِها إلى الخطَر كي تُبعِده عن أبنائها. أخرِجُ هاتفي من جَيبي، وأفتَحُ صفحةَ مُدَوَّنات فيه كتَبتُ عليها في ليلَتي الأولى في المستشفى، بدَلاً من دفتر يوميّاتي الذي تركتُه في دُرجٍ مُقفَلٍ في غرفتي: **حين كنتُ طِفلاً كنتُ مقتنِعًا بأنَّ أمّي هي أجملُ امرأة في الكون. إلى هذه اللحظةِ أراها كذلك، حتّى بعينِها المُتَوَرِّمةِ وضماداتِ جروحِها في السرير. جمالُها ليس خارجيًّا فقط، بل هو داخليٌّ يَجري في شراييِنها ويصِلُ إلى كلّ خليّة من خلايا جسدِها. منذ طفولتي إلى اليوم، أراها أقربَ إلى الملائكةِ منها إلى البشرِ. ما سببُ تحمُّلِها لأبي كلَّ هذه السنين غيري أنا وأختي؟ لا أنكرُ أنَّ ذلك يُشعِرُني بقليلٍ من الذنبِ تِجاهَها. لكن مع كلِّ مأساةِ الذي حصلَ، أنا فخورٌ بأنّي استطعتُ الدفاعَ عنها، ولو مُتأخّرًا. من الآن فصاعِدًا لن يمَسَّها ولن يؤذيَها حتّى بالكلامِ. لن أسمحَ له بذلك.**

"أنَس، هل ما زِلتَ معنا؟" تسألُ المحامِيَة.

"أعتذرُ، كنتُ أقرأ شيئًا على هاتفي."

"بسيطة. اسمغ. ستذهَبُ السيّدة سلام معكَ إلى المستشفى لتغرِضَ على أمّكَ فكرةَ الانتقالِ إلى بيتِها. ومُهِمَّتُكَ أنتَ هي أن تجِدَ طريقةً للعودةِ إلى البيتِ قريبًا لإحضارِ أوراقِها الخاصّةِ وبعضِ حاجيّاتِها. أحضِرْ جوازَ سفرِها، والأوراقَ الرسميّة الأخرى كإخراجِ قيد عائليّ ووثيقةِ زواج. هل تعرِفُ أين هي كلُّ هذه المستنَداتِ؟"

"سأسألُ أمّي أين تحتفِظُ بها. سوف أذهَب إلى البيتِ غدًا صباحًا بعد خروجِ أبي إلى العملِ. سأراقِبُ سيّارتَه تتركُ قبل أن أصعدَ."

"انتبِه إلى نفسِك يا أنَس. لا نريدُه أن يؤذيكَ حين يراكَ"، تقولُ المحامِيَةُ.

"لا تقلقي. لم أعُد أخافُ منه"، أرُدُّ بصوتٍ واثقٍ.

تخطرُ لي فكرةُ أن أنزلَ في بيتِ أحمد في هذه الفترة. تانت داليدا تعرفُ كلَّ القصصِ عن أمّي، ولا يهمُّني الآن إخفاءُ ما جرى عن أحمد. فأنا لم أعُد جبانًا، وسأعمَلُ كلَّ ما بإمكاني أن أفعلَه كي أساندَ أمّي إلى أن تقِفَ على قدمَيها مجدَّدًا... إلى أن تمارسَ استقلاليّتها وحُريّتَها في العيشِ. ولكي أحميَها الآن، عليّ ألّا أخافَ من مواجهةِ من حولي. إن كان بإمكاني مواجهةُ أبي الظالم، فبإمكاني مواجهةُ الأصدقاءِ وتساؤلاتِهم. إذًا سأخبرُ أحمد بكلِّ شيء.

29

لينا

ترتبِكُ تانت ليلى عند سماعِ عرضِ أمّي للانتقالِ إلى شقّتِنا. تَفرُكُ يدَيها وهي تتمعَّنُ بهما غارقةً في التفكيرِ. لا تعرفُ بما تجيبُ. أفهمُ ارتباكَها. فهي لم تزَ أمّي إلّا مرّة واحدة، في مكتبِ المنظَّمةِ، والآن تبدو مُحرَجةً تجاهَ كلِّ اللطفِ الذي تُبديهِ لمساعدتِها. يقولُ أنَس مشجِّعًا: "ماما، هي فترةٌ قصيرةٌ، انتقاليّةٌ فقط. تانت سلام ليست غريبة. هي أمّ لينا." أبتَسِمُ عند قولِه ذلك. أنَس قالَ ما قالَه، "هي أمّ لينا"، بحميميَّةٍ في صوتِه، بعثَث دفئًا إلى قلبي. إضافةً، لقد نادى أمي تانت سلام وليس سيّدة سلام، ما يدلُّ على أنّه أسقطَ شعوَره بالرسميّة تِجاهَها.

بعد هذا الحديثِ بيومَين، تخرجُ تانت ليلى من المستشفى. نأتي أنا وأمّي صباحًا لاصطحابِها معنا. يمشي أنَس نحو سيّارتِنا مُمسكًا بيَدِ أمّه، مُشجِّعًا إيّاها بابتسامَتِه الطيّبة. يبقى كذلك كلَّ الطريقِ إلى بيتِنا. بعد أن نصلَ ويطمئنَّ على راحةِ أمّهِ واستقرارِها في غرفتِها، يُودِّعُنا ويقولُ إنّه ذاهبٌ إلى موعد مع أحمد.

عصرًا، بعد أن تستفيقَ تانت ليلى من قيلولةٍ قصيرة، تصنعُ نادية القهوةَ لأربعةِ أشخاصٍ، كما طلبَت منها أمّي،

ونجلسُ جميعُنا على شرفتِنا المطلّةِ على شرفاتِ المبنى المقابلِ.

أحبُّ هذه الشرفة كثيرًا. حين انتقَلْنا إلى لبنان، استغربْتُ بدايةً قربَ المباني بعضها من بعض. بإمكاني، من شرفتي مثلًا، بخاصّةٍ في الأيّامِ الدافئةِ حين يفتحون ستائرَ الغرَفِ، أن أرى أجزاءًا ممّا يفعلُه الناسُ في الطوابقِ المُختلِفةِ داخلَ شققِهم. في الغالبِ أرى الأرجُلَ. هذه تدخلُ غرفتَها، تخرجُ إلى غرفةِ الجلوس، تغيبُ وتعودُ لتَجلسَ وفي يدِها شيء. أخمّنُ أنّهُ كوبُ شايٍ أو ساندويش جُبن. تلك تجلسُ لساعاتٍ على شرفتِها تقرأ وهي تدخّنُ السجائر. عائلةٌ أخرى في طابق آخر تجتمعُ كلَّ مساءٍ لتأكُلَ أمام التلفزيون؛ فيها صبيٌّ صغير تبدو طلباتُه كثيرة. فما إن تجلسُ الأمُّ حتّى تقومَ لِتعودَ بشيء ما في يدِها له. في طابق مُختلِف، هناك عجوزٌ تعيشُ وحدَها. لا أرى أحدًا في البيتِ غيرها. تلك العجوزُ تطفِئ أنوارَ بيتِها كلَّ مساءٍ في الساعةِ التاسعةِ تمامًا. أفكّر أنّها تنهَضُ من نومِها باكِرًا جدًّا، لأنّي في أيّامِ المدرسةِ، كنتُ أراها أحيانًا واقِفَةً على الشرفةِ بكامِلِ أناقتِها في الساعةِ السابعةِ والنصفِ صباحًا، موعدِ مُغادرتي البيت. وأفكّرُ دومًا، أنّه مثلما أنا أراقبُهم وأبني القصصَ حولَهم، لا بدّ أنّهم هم أيضًا يُراقبونَنا ويَبنون القصصَ حولَنا. كم أحبُّ أن أسألَهم ما هي قصصهم عنّا.

نشربُ القهوةَ العربيّة التي لا أحبُّها كثيرًا. أفضِّلُ قهوةَ الكابوتشينو في الموكا مع أنَس التي اعتدتُها بعد صفوفِ اليوغا. أفكِّر في أنَس. أفكِّر في الحديثِ الذي يدورُ الآن بينَه وبين أحمد. أتمنّى أن يكونَ أحمد لطيفًا وألّا يغيظَه بتعليقاتِه كالعادة. تتحدَّثُ أمّي وتانت ليلى بدايةً عن مواضيعَ عامّة. تتكلّمان عن مصاعبِ الحياة في بيروت وأسبابِها. انقطاعُ التيّارِ الكهرَبائي وغَلاءُ اشتراكاتُ المُوَلِّدات للتعويض عن ذلك. شُحُّ المياه في فَصل الصيف. غلاءُ المَعيشةِ. الضجيجُ الزائد في بعضِ الأحياءِ السكنيّة بسببِ كميَّة المقاهي والملاهي الليليّة التي تفتحُ مُتأخِّرةً بشكلٍ عشوائيّ، دون الأخذِ في الاعتبارِ نوعَ الحَيّ ونمطَ حياةِ سكّانِه.

وللانتقالِ من العامِّ إلى الخاصّ، تسألُ تانت ليلى بعد رَشْفِ آخرِ قطرةٍ من قهوتِها: "لا أعرفُ عنكِ الكثيرَ. كلُّ ما أعرِفُه من أنَس هو أنَّ زوجَكِ تُوفّي وأنَّكِ انتقلتِ من فرنسا إلى لبنان هذه السنة." تتنهّدُ أمّي استعدادًا للإجابة. تقولُ: "ما تعرفينَه جزءٌ من الحقيقةِ." ثمّ تَستَرسِلُ في إخبارِها عن عمّي أمجد وآخرِ ضغوطِه بالنسبةِ إلى نادية وسعيد. تُصغي تانت ليلى بانتباهٍ تامّ وبنَظرةٍ مُتَعاطِفةٍ. تقول: "من المؤسِفِ أن يكونَ وضعُ المرأةِ ضعيفًا إلى هذه الدرجةِ عندنا." تصمتُ قليلًا ثمّ تكمِلُ: "بالنسبةِ إلى شقَّتِكُم التي سجَّلها باسمِه، ألا يمكنُ رفعُ دعوى ضِّده على أساسِ الاستيلاءِ عليها في حياةِ

زوجكِ؟" تجيبُها أمّي: "كان لديهِ توكيلٌ عامّ من زوجي.
هذا يعني أنّه قانونيًّا لم يقُمْ بأيّ مُخالَفةٍ".

.

30

أنَس

قبل أن أتَّجهَ إلى بيت أحمد، أقرّرُ أن أذهبَ لزيارةِ بيتِ جدّي للاطمئنان عن دارين. أجدُ دارين تشاهدُ فيلمًا على التلفزيون، وجدّتي في المطبخِ تُحضِّرُ الطعامَ. جَدّي ليس في البيت. أخبرُ دارين بمكانِ أمّنا في الوقتِ الحاضِر، وبأنّها ستَزورُها غدًا. لا تسألُ أختي الكثيرَ من الأسئلة، فهي مركّزةٌ على الفيلم.

في المطبخِ، تطلُبُ منّي جدّتي الجلوسَ وتُقدِّمُ لي عصيرَ التفّاح. تسألُني عن أحوالِ أمّي فأخبرُها بعضَ التفاصيل، ولا أُخفي عنها احتمالَ رفْعِ دعوى ضِدّ أبي. تستَنكِرُ ذلك جدّتي بشِدّة. تُمسِكُ مِعصَمي بقوّة وتقول: "هذا أبوكَ يا أنَس. هل ترضى بأن يُقالَ عنك ابنُ سجين إن كان عقابُه السجن؟ على أمّكَ أن تعودَ إلى بيتِها في أسرعِ وقتٍ. من واجبِها أن تكونَ قويّةً وأن تُحافِظَ على بيتِها بالرغمِ من ظُروفِها الصعبةِ. عليها ألّا تُغضِبَه وأن تتَحمَّلَ. الرجلُ تاجُ رأسِ المرأةِ. ما قيمتُها دون رجُلِها؟"

"جدّتي! أرجوكِ لا تتكلّمي هكذا. أيُّ تاجٍ هذا الذي يحطّمُها؟" أردُّ بعَصبيّةٍ مُحرِّرًا مِعصَمي من يدِها ومُبتَعِدًا عنها: "أمّي في خطرٍ مع أبي وعلينا جميعنا أن نساعدَها."

"جيلُكم لا يقدِّر قيمةَ الأسرة. الأمورُ ستتغيَّرُ مع الوقت يا أنَس."

"أنتِ تتكلّمين عن ابنَتِك. لا أفهَمُ المَنطِقَ الذي تُفكِّرين به يا جدَتي."

"غدًا تكبُر وتفهَم. ما زِلتَ يافِعًا لا تفهَمُ إلّا القليلَ عن أمورِ الحياة."

كلامُها يثيرُ غضَبي. أطلبُ من دارين أن تتّصِلَ بي إن احتاجَت إلى أيِّ شيء وأخرُجُ.

أصلُ إلى بيتِ أحمد فأجدُ والدَيه. يرحِّبان بي ويدعُواني لأشاركَهما جلستَهُما على الشرفة المُطِلّة على البحر. تقولُ تانت داليدا وهي تسكبُ لي فنجانَ قهوةٍ لا تزالُ ساخنةً: "أحمد يعودُ بعد دقائق. أرسلتُه إلى الدكّان لشِراء الخبز." يلفَحُ النسيمُ وجهي فأشعُره يَغسِلُ قلبي من توتُّرِ الأيّامِ السابقةِ. أرشفُ القهوةَ العربيّة التي لا أحبُّها كثيرًا. أفضِّلُ قهوة الكابوتشينو في الموكا مع لينا التي اعتدتُها بعد صفوفِ اليوغا. أفكّر في لينا. أفكِّر في الحديثِ الذي يدورُ الآن بين أمِّها وأمّي. تقولُ تانت داليدا: "أنَس، لقد تكلّمتُ مع أمِّكَ البارحة، وقرَّرنا أنّه من المناسبِ أن تبقى أنتَ معنا في الوقتِ الحاضِر." يضيفُ أبو أحمد: "البيتُ بيتُك يا حبيبي. أنتَ كأخٍ بالنسبةِ لأحمد." أتنهَّدُ. لقد وفَّرا عليَّ عناءَ طلبِ مثلِ هذا الطلب. أهُزُّ برأسي مُوافِقًا على عرضِهما. يُضيف أبو أحمد: "يُسعِدُنا أن تكونَ بيننا إلى حين مرورِ هذه الأزمةِ وجمعِ شَمْلِكَ مع أمِّك وأختِكَ في بيتِكُم مُجدّدًا."

إنْ كانَ أبو أحمد يَعرِف بقصَصِنا، فمن المؤكّدِ أنّ أحمد على علمٍ أيضًا، بخاصّةٍ أنّي تَجاهلتُ رسائلَه ورسائلَ عماد في الأيّام الأخيرة ولم أخرجْ معهما منذ مدّة. تقرأُ تانت داليدا التساؤلاتِ في رأسي، فتقولُ: "تكلّمتُ مع أحمد بالموضوعِ. هو على علمٍ بما حصلَ، وقد وضّبتُ لكَ فِراشًا إضافيًّا في غُرفتِه."

يصلُ أحمد. يعتذرُ لأنّه جعلَني أنتظِرُ، ويدعوني إلى غرفتِه. وبما أنّي أعرفُ أنّه يعرفُ لكنّي لا أعرفُ تمامًا ما له عِلمٌ به، أشعرُ بأنّ الموقِفَ مُحرِجٌ نوعًا ما. أتمنّى أنْ يكون لطيفًا اليومَ وألّا يغيظَني بتعليقاتِه كالعادة. هو مُحبٌّ، لكنّه لا يعرِفُ كيف يعبّرُ عن ذلك، فيُعوِّضُ عنه بالاستهزاء أحيانًا. لكنْ قبل أن أقرّرَ ماذا أقول، وما إن نذخُلُ الغرفةَ ويُغلَقُ البابُ وراءَنا، حتّى يُمسِكَ بكفّي ويضرِبَها بكفّه بكلّ قوّته. يقولُ وهو يضحكُ: "أنتَ بطلٌ! فاجأتَني يا أخي."

لا أجيبُ. يُكمِل. "تضرِبُ أباكَ بالحِزام لتُدافِعَ عن أمّكَ. واو! لم أكنْ أقدّر شجاعتَكَ هذه من قبل يا أنَس."

"للضرورةِ أحكامٌ. لم يكنْ أمامي إلّا ذلك وإلّا لكانَ ضربُه أودى بحياتِها."

"لا تقلّلْ من قيمةِ ما فعلتَ! لا أعرفُ إنْ كنتُ أمتلِكُ مثل شجاعتِكَ."

أبتسِمُ وأقولُ: "أنا بحاجةٍ إلى الحِفاظِ على هذه الشجاعةِ الآن، وبمُساعدتِكَ."

"أنا حاضِر لأيّ طلبٍ يا أنَس. لكن ماذا عن عماد؟"

"هو لا يَعلمُ بكلِّ هذا بعد"، أجيب.

"من الضروري أن نجتمِعَ به اليومَ ونخبَره. فنحنُ الفرسان الثلاثة... أنَسيت؟"

"لم أنَس. وموضوعُ الفارس الثالث هو أوّلُ ما أريدُ مساعدتَكَ فيه. أريدُكَ أن تكونَ معي حين أخبرُ عماد بالموضوع. مع أنّه مِثلُ أخي هو أيضًا، لكنّه ابنُ عمّي، ولا أعرِفُ إنْ كان أبي اتّصل بعمّي، وإن فعلَ، أقدّر أنّه قالَ الأسوأ عنّي وعن أمّي. هل تقابِلُه معي لأخبَره بما حصلَ بالضبط؟"

"بالطبع، وأيُّ سؤال هذا؟" يرُدُّ أحمد وهو يُسقِطُ كَفَّهُ بقوّة على ظهري، علامةَ تحبُّبٍ مَمزوجةً بقوّةِ الرجولةِ. أضيفُ: "الأمرُ الثاني الذي أريدُ طرحَهُ هو أن تأتيَ معي غدًا إلى بيتي. سأطلبُ من عماد ذلك أيضًا. عليَّ أن أخضِرَ بعض الأوراقِ والأغراضِ من هناك"

"وأبوكَ؟ ماذا لو كان في البيتِ؟ لا، شكرًا... لا أنوي أن أكونَ شاهدًا على عِراكٍ بينكما."

"لن يكونَ هناك. نراقِب سيَّارَته وهو يغادِرُ إلى العملِ، وبعدها ندخُل."

"ما رأيُكَ أن أتّصلَ بعماد لينضمَّ إلينا الآن؟" يسألُ أحمد. أوافِق، فيكتُب رسالةً مُختصَرة على هاتفِه: **اجتماع طارئ. أخبارٌ دَسِمة ومُهِمّةٌ أدسَم.**

يصِلُ عماد في خلال أقلَّ من نصف ساعة، والفضولُ ظاهِرٌ عليه من اندفاعِه لمعرفةِ ما في الأمرِ. يبدأ أحمد: "نتوَّجُ أنَس فارسَ الموسِم!" ثمّ يطرُقُ على طاولةِ

مكتبِه... ترا ترا ترا... ترا ترا ترا... وكأنّه يُهيّئ الجوَّ لعَرضِ بَهْلَوانِيّ.

"إن كانتِ الفُروسِيّةُ بعدمِ الردِّ على رسائلِ الأصحابِ وعدَم الخُروجِ معهُم لأكثر من أسبوعَين، فأنا أعتَزِل الفروسيّة."

"اصبِر يا أخي. أعطِ أنَس الوقتَ للكلام."

31

لينا

"ماذا تَنوينَ إذًا؟ كيف ستتخلَّصين منه؟" تسألُ تانت ليلى التي يبدو عليها الآن القلَقُ على وضعِنا. هي التي بدأت بالخُطوةِ الأولى للتخلُّص من الرجلِ الذي يتحَكَّمُ بها، تُشجِّعُ أمّي الآن على أن تتخلَّصَ من الرجلِ الذي يتحكَّمُ بحياتِنا.

"الحلُّ الوحيدُ الذي أراهُ هو التخلّي عن كلِّ شيء والعودةُ إلى فرنسا." تُجيبُ أمّي، فنردُّ أنا وأختي معًا: "ماما! تفكّرين في ذلك بجدّ؟"

تجيبُنا: "اتّصلَ صديقُنا فرانك من فرنسا أمس. أخبرني أنَّ مبلغَ تأمينِ الحياة الذي يحقُّ لنا بعدَ وفاةِ أبيكُما كبير، يكفينا لنَبدأ بتأسيسِ حياةٍ جديدةٍ هناك. شجّعَني فرانك على المغادرةِ ووعدَني بمُساعدتِنا في إيجادِ شقّةٍ للسكنِ حين نصِلُ. وبما أنّه صارَتْ لديَّ بعضُ الخِبرةِ في العمَلِ الاجتماعيّ هنا، أنوي الالتحاقَ بدوراتٍ تدريبيّةٍ في باريس حين نصِلُ، وبعدَها أبحثُ عن عملٍ. أساسًا، حتّى لو احتَجْنا إلى دعمٍ ماديّ هناك، نحن كمواطنين فرنسيّين نحصلُ على ذلك من الدولةِ، بالإضافةِ إلى أنّ العِلمَ مجّانيٌّ والطبابةُ مجّانيّةٌ والعِنايةُ

الصحيّةِ مُؤمَّنة، وهناك تسهيلاتٌ كثيرة للشبابِ الذين بعمرِكُما غيرُ متوفّرة هنا."

تقفِزُ أختي عن كُرسيِّها، تقبِّل أمّي وهي تصيحُ: "لا أصدِّق! لا أصدِّق! هذا خبرٌ رائعٌ يا ماما! لماذا لم تُخبرينا به من قبل؟"

أمّا أنا فلا أعرفُ كيف أتفاعلُ مع الموضوعِ. بالطبعِ أحِبُّ أن أعودَ إلى باريس، إلى مدرستي هناك، إلى أصدقائي. لكنْ ماذا عن أنَس؟ لا أريدُ أن أبتعدَ عنه. لقد تعلَّقتُ به كثيرًا، بالأخصّ في الفترةِ الأخيرةِ. أجدُه الوحيدَ الذي يَفهَمُني بالإشارة. يشعرُ معي وأشعرُ معه. إضافةً، أجِدُ أنَّ رحيلَنا من بلد قوانينُه لا تَحمي حقوقَنا هو هروب. هل يهرُب كلُّ من في وضعِنا أم نبقى ونطالبُ بتغييرِ القانون؟ الأمورُ مشوَّشةٌ في ذِهني. لديَّ حَدسٌ بأنّ الأشياءَ ستتغيَّرُ أسرَعَ ممّا أريد، إذْ يبدو أنّ أمّي تفكّرُ في أمرِ رَحيلِنا منذ فترة... أتَوتَّر. أكتبُ رسالةً هاتفيّة إلى أنَس.

32

أنَس

قبلَ أن أبدأ بسردِ الأحداثِ الأخيرة، أُهَيّئ عماد بمُقدِّمات عن الصوَر القديمة التي اكتشفتُها، وعن عصبيّة أبي التي صارَتْ تَتزايَدُ مع الوقتِ. ثمّ أخبرُهُ دون تفاصيل عن تدهوُرِ الحالِ في السنتَين الأخيرتَين، وُصولًا إلى الحدَثِ الأخير.

يُصغي عماد بدهشةٍ، دون أيِّ تعليقٍ. "أقفِلْ فمَكَ يا صبيّ ولا تنسَ أن تتنفّسَ." يقول أحمد. "شهيق زفير... شهيق زفير... شهيـ..."

"كُفَّ عن ذلك يا أحمد"، أصيحُ. "أعطِه وقتًا كي يستَوْعِبَ."

يُعلِّقُ عماد: "كيف لم أجمَعِ المعطَياتِ وأستَنتِجْ وحدي؟ كلُّ هذه السنين كنتُ ألاحِظ علاقةً غريبةً بين والدَيكَ. أمُّك لا تعارِضُه في أيّ أمر، وإن طلبَ شيئًا تحضِره دون سؤالٍ. كنتُ ألاحِظُ أيضًا علاقةً غيرَ اعتِياديّةٍ بين أبيكَ وأبي. أبي يتجنَّبُ اللقاءاتِ معه، وإن التَقَيا، يكونُ الحديثُ عن أمورٍ عامّةٍ، بعيدةٍ عن الخُصوصيّةِ والحميميّةِ كما هو المُفترَضُ بين الإخوةِ."

"الآن تعرِفُ الأسبابَ"، أقول.

"ربّما من حُسنِ حظِّ أبي، وحظِّنا أيضًا أنّ أباه تُوفّي وهو رضيعٌ. لم يعرِفْهُ ولم يتعرَّضْ لعُنفِه مثلَ أبيكَ."

تقطَعُ أحاديثَنا رسالةٌ ترِدُني من لينا: **الأمورُ تتغيّر أسرعَ ممّا كنتُ أتوقّعُ.**

33

لينا

تسألُ تانت ليلى من هو فرانك، فتقولُ أمَي: "نعرفُ فرانك منذ عشرين سنة. تعرَّف إليه المرحومُ زوجي في الشرِكة التي عمِلا فيها معًا في أميركا، والتي نقلتهُما معًا إلى فَرعِها في باريس. كانا صديقَين قريبَين جدًّا، مثلَ الأخوَين. فرانك يحِبُّ نادية ولينا كبناتِه، ولم يتوقَّفْ عن دَعْمِنا في كلِّ المصاعب التي مرَرْنا بها خِلال مرَضِ زَوجي وبعدَه."

"جيّد أنّ لديكِ حَلًّا سيُخلّصُكِ من الوَضْعِ هنا. ليت باستطاعتي مغادرةَ هذا البلدِ أيضًا"، تقولُ تانت ليلى.

"هل لديكُم جِنسيّةٌ أجنبيّةٌ؟ هذا يسهِّلُ الأمورَ كثيرًا،" تقولُ أختي نادية.

"نَحمِل الجِنسيّةَ الألمانيّةَ، وصديقةُ طفولتي، ياسمين، تُقيم في بِرلين، وقد اقترَحَتْ عليّ منذ وقت طويل تركَ وضعي البائسِ هنا والانتقالَ مع أنَس ودارين، بخاصّةٍ أنّهما في المدرسةِ الألمانيّةِ ويُجيدان اللغةَ. لكنّي لم أتخيَّلْ تركَ لبنانَ في حياتي."

"أنتِ يا ليلى لديكِ حلٌّ"، تقول أمَي. "غدًا تكسِبين القضِيّة وتعودين إلى بيتكِ ووظيفَتكِ مرفوعةَ الرأس. أمّا أنا فالقانونُ هنا ضِدّي من الأساس."

أسألُ أمّي: "يعني نهربُ مِن هنا بدلَ مُواجَهةِ عمّي؟"

"لا أعتبِرُ هذا هروبًا يا حبيبتي. كلُّ ما في الأمر هو أنّ همّيَ الأكبرَ الآن هو حمايتُكِ وأختَكِ وتأمينُ أفضل تعليم لكما. في الحقيقةِ هناك حَراكٌ شعبيّ يحصُل في البلدِ لتغييرِ واقعِ المرأة وحصولِها على حُقوقِها. لكنّ هذه الأمورَ تأخذُ وقتًا طويلًا كي تُؤدّي إلى نتيجةٍ عمَليّةٍ. من المؤسفِ أنّنا سَنُضطرُّ للّجوء إلى الغَرب كي نعيشَ الحياةَ التي نريدُها."

ما تقولُه أمّي صحيح. مؤلِمٌ لكنْ صحيح.

تتنهّد. تُضيف: "سنبدأ حياةً جديدةً ليس فيها عمُّك."

"ولا شخصٌ سَمِجٌ اسمُه سعيد"، تقولُ أختي وهي تُرقِّصُ وسَطَها في كُرسيِّها من شِدّة حماسَتِها لفِكرةِ العودةِ إلى باريس.

34

أنَس

قلبي يطرُق وكأنّه طبلٌ. لينا تَجلِس إلى يميني في سيّارة التاكسي، وأحمد إلى يساري. عماد في المَقعَد الأماميّ قُربَ السائق. حين نصلُ إلى أوَّل الشارع، أطلبُ من السائق أن يتوقَّفَ وينتظِرَنا هناك. ننزِلُ ونتَّجِهُ إلى بنايتِنا. إنّها الساعةُ التاسعةُ صباحًا. يلمَحُني العمُّ أبو عاصي أقترِبُ، فيَرمي جانبًا خَسَّةً كان يُشذِّبُها من أوراقِها الخارجيّة الذابلة، ويخطو نحوي يستقبلُني بابتِسامتِه العَريضة ويصافِحُني بحرارةِ يَده الغَليظة. ألمَحُ في عينَيه نظرةَ العارِف. أتذكَّرُ كبَزقٍ سريعٍ يومَ أخرَجْتُ أمّي مُدَمّاةً من المبنى. ركَض يومَها وساعدَني على إدخالِها السيّارةَ دون أن يسألَ أيَّ سؤال. كان يعرِف. أظنُّ أنّ كلَّ الجيران يعرفون. لا بُدَّ من أنّ صُراخَ أبي أيّامَ هَيَجانِه وتعنيفِه كان يَخرُقُ الجُدرانَ ويمتَدُّ من سطحِ المبنى إلى مرآبِه. يسألُني العمُّ أبو عاصي: "هل الجميعُ بخير يا ابني؟" أبتَسِمُ لأؤكِّدَ له أنْ نعم: "بخير. مشكورٌ يا عمّ." ثمّ نتوَجَّهُ إلى بابِ المبنى. الناطورُ مُعتزٌ مشغولٌ بمَسحِ مرايا المَدخَل. حينَ يراني يصيح مبتهجًا: "اشتَقْنا يا أستاذ أنَس." ثمّ يقترِبُ ويهمِسُ في أذُني: "خرَجَ منذ نصفِ ساعة." هو أيضًا يعرِفُ أنّي

رَحَلْتُ عن البيت مع أمّي وأختي. هو أيضًا سمعَ وشاهدَ أكثرَ من مرّة ما يحصلُ في شقَّتِنا. أنا الذي كنتُ أحاوِلُ احتِواءَ هذا السرِّ الكبيرِ في دفاتري التي أخبِّئُها حتّى مِن نَفسي أحيانًا، ألاحِظ مدى سذاجَتي اليوم. لمَ خفتُ؟ لمَ لمْ أثُر من قبل؟

أشكرُ مُعتَزّ، أقول لأحمد وعماد: "انتظِرا هنا. راقِبا المدخلَ. إن حصَل أنْ عادَ فجأةً، اتّصِلا بي فورًا."

أصعَدُ إلى شقَّتِنا مع لينا. أشعرُ بأنّي في فيلم بوليسي. أزلِقُ المفتاحَ في القفل وأفتَحُ البابَ بكلِّ تَمَهُّل. ندخُل. لا أشمُّ رائحةَ بيتي المعهودةَ التي اشتَقْتُ إليها. رائحةٌ غريبة تَعُمُّ المكان. أدخُل المطبخَ فأجِدُ المَجلى مليئًا بالأواني المتَّسِخة. دَلْوُ النُفايات مفتوحٌ تنبَعِثُ منه رائحةُ قِشرِ الموزِ القديم ممزوجةً برائحةِ أعقابِ السجائر. الفوضى تَعُمُّ المكان. تجتاحُني مَوْجةُ حُزْن مُفاجئة. حزنٌ على أبي هذه المرّة. حزنٌ لأنّي وصلْتُ إلى الشعورِ بالاشمئزاز منه، هذا الإنسانُ الذي لا يمتلِكُ أدنى مَعرفة بفَنِّ العيشِ مع زوجةٍ يُحبُّها، ولا بأمورِ العيش دونَ زوجةٍ تهتمُّ به. هل هو نادِمٌ؟ هل يشتاقُ إليها ويتمنّى لو تعود؟ أشعُر بالشفَقةِ تِجاهَه. في النهايةِ، هو ضَحِيّةُ نفسِه. تجرُّني لينا من يَدي إلى غرفةِ الجلوس: "هيّا أسرِعْ. أين الأوراقُ التي نحتاجُ إليها؟"

في غرفةِ أمّي، أجِدُ الظرفَ حيث أشارَت إليّ، في آخرِ دُرج في خِزانتِها تحت الجوارِب. أدُسُّه في حقيبةِ ظهري. أطلبُ من لينا أن تجمعَ بعض الثيابِ لأمّي

وتضعَها في حقيبةٍ صغيرةٍ أسحبُها من أعلى الخِزانة. أدخلُ غرفَتي فأتَّجِه مباشرةً إلى دُرجي المُقفَل. ما زال مُقفَلًا؛ إذًا لم يعبَث أبي بأغراضي. أجِدُ دفاترَ يوميّاتي حيث تركتُها، فأجمَعُها وأملأ حقيبةَ ظهري بها. ألقي نظرةً على سُفُني المصفوفةِ على رفّ أمامي. أمسَحُ غبارَ بعضِها بكفّي. هل آخذُها كلَّها؟ أم أبقيها في البيت؟ ماذا لو أتلَفَها أبي لينتَقِمَ يومَ يعلَمُ بالدعوى التي ترفَعُها أمّي ضِدَّه؟ أتناولُ سفينتي المُفضَّلة، وهي سفينة فرنسيّة، وأدُسُّها بانتباه في جَيْب حقيبتي الخارجيّ. أتركُ باقي السفُنِ على أملِ أن أجِدَها في المرّةِ المُقبلة. أسمَعُ لينا تحُثُّني، فهي مُتوتِّرة وخائفة من عودة غيرِ مُتَوَقَّعة لأبي. وبينما أضَعُ بعضَ الثيابِ لي ولأختي في حقيبة أخرى، أتلقّى اتّصالًا من عماد: "أسرِعا! اترُكا المكان... لَمَحناهُ يَدخُل المرآبَ بسيّارتِه!" نحمِلُ الحقائبَ كيفَما اتَّفَق، ونُهرولُ نازلَين على الدرَجِ خوفًا من الالتِقاءِ به في المِصعَد. لينا تتخَلَّفُ عنّي بسبب ثِقلِ حقيبتِها، فأتمَهَّلُ وأساعدُها. نصِلُ إلى المدخلِ. أرى المِصعَد يتوقّفُ في طابقِنا. أقلُّ من نِصفِ دقيقة فرَّقَتْنا عنه.

35

لينا

مساءَ ذلك اليوم، أجلِسُ مع أنَس وأمّي على الشرفة نشرَبُ عصيرًا، بينما تذهَبُ تانت ليلى إلى بيتِ أهلِها لتطمَئنَّ على دارين وتُعطيَها حقيبةَ ثيابِها. ونحن نستَرجِعُ تفاصيلَ مُغامَرةِ الصباحِ، تذكّرُني أمّي بما ذَكَرَتْهُ مِرارًا خِلال اليوم، بأنّي أخطَأتُ في مُرافَقة الفرسان الثلاثة في مُهمَةِ إخراجِ الأغراضِ اللازمةِ من شقَّة أنَس. وهي لو عرفَتْ لما سمحَتْ لي بالذهابِ.

يسألُني أنَس بعد أن تتركَنا أمّي وحدَنا: "ماذا عنيتِ حين قلتِ لي في رسالَتِك إنَّ الأمورَ تتغيَّرُ بسرعة؟"

"هذا بالضبط ما أريدُ الحديثَ عنه يا أنَس"، أقولُ وأنا أنظُر عميقًا في عينَيه.

يَشعرُ بحُزني. يسألُني عنه. "سنرحَل"، أقول.

"ها؟" يسألُ لِيَتأكَّد ممّا سمع. أوَضِّح: "الحَلُّ الأفضَلُ هو أن نعودَ إلى فرنسا."

صفتُ أنَس يُضيفُ إلى هُدوءِ المساء. لا أعرِفُ ماذا يجولُ في رأسِه، لكنَّه يُفَكِّر. "ما بالكَ؟ لن أختفي. نبقى على تواصُل."

"متى ترحَلون؟"

"ليس قبل انتهاءِ الصيف. اطمَئنّ"، أقولُ مع ابتسامةٍ مُحاوِلةً تزطيبَ الجَوّ. لا يَرُدُّ الابتسامةَ.

"ما هذا البلدُ؟ أحيانًا يُضطَرُّ من له قَضِيَةٌ إلى الرحيلِ بسببِ عدمِ وجودِ حلٍّ محلّيٍّ."

"بطريقةٍ ما، نحن محظوظاتٌ لأنّنا نملِك حَلًّا بديلًا، وإلّا لتزوَّجَتْ أختي ولاستمَرّ عمّي في التحكُّم بكلِّ تفاصيلِ حياتِنا. والأسوأ من ذلك أنّ ما يفعلُه مدعومٌ ومقبولٌ من شريحةٍ كبيرةٍ في المُجتمَع."

"معكِ كلُّ الحقّ يا لينا، مع أنّي مُقتنِعٌ بأنّ هناك أمَلاً في التغيير. يوجدُ شبابٌ متحمّسين لذلك، يستغِلّون توفُّر وسائلِ التواصُلِ الاجتماعيّ لنَشرِ الوعي وتنظيمِ تحرُّكات سلمِيّة، ما سيؤدّي إلى التغييرِ في يوم ما. لكنّي أفهمُ أنّكِ وأمّكِ وأختكِ لن تنتظرنَ إلى أن يحصلَ ذلك." يقولُ ذلك بعد أن يقِفَ وينظُرَ عبر الشُّرفة إلى المبنى المُقابل. بعضُ الجيران يسهرون على شرُفاتِهم في هذا الطقس الحارّ. لأغيّرَ الموضوعَ والجوَّ الثقيلَ، أحدّثُ أنَس عن كلِّ طابق، من يسكُن فيه وبعضِ عاداتِهم التي ألاحِظُها. أذُنا أنَس ليستا معي، إذْ يسألُني بعد أن أصمُتَ لِثانيةٍ: "هل أنتِ سعيدةٌ بالرحيلِ؟"

"نعم ولا."

36

أنَس

لا أجِدُ أحمد في البيت حين أعود. فقد ذهبَ مع عماد لمُشاهدة مباراة كرة القدَم في أحَدِ المقاهي مع مجموعةٍ من الرفاقِ. تسألُني تانت داليدا عن حالِ أمّي اليوم، فأطَمئِنُها، وأعتذِرُ عن العشاءِ معها ومع زوجِها لأنّي قد أكَلْتُ عند لينا، ثمّ أنسَحِبُ إلى الغرفةِ. أتناوَلُ دفترَ يومياتي لأفرِغ ما في داخلي: **لماذا رَكِبَني هذا الشعورُ القويُّ بالقلقِ والحُزنِ حين أخبَرَتني لينا بجديدِها؟ عليَّ أن أكونَ سعيدًا من أجلِها. لا أعرِفُ كيف ستكونُ الحياةُ في بيروت من دونِها. لقد اعتَدتُ وجودَها في حياتي. نحن نَلتقي كلَّ يوم تقريبًا. ما يجمعُنا أكثرُ من صَداقة. لم أجرؤ على التلفُّظِ بالكلمةِ بعد. لا للينا ولا لغيرِها عن شُعوري نحوَها. الحُبّ. هل هذا هو الحُبّ؟ أن تشعُرَ بانقباضٍ في أحشائكَ وأن تحبِسَ دمعًا إن أفلتَّه فضحَكَ؟ أن تقلقَ فيرتَجِفُ كلُّ ما فيك، حتّى القلمُ بين يديكَ؟ هل الحبُّ ألّا ترى مستقبلَكَ دون الآخر؟ حين أرى لينا تُشرِقُ شمسٌ في داخلي. أشعرُ بقوّةٍ تجعلُني أستسهِلُ أصعبَ الأمورِ. أشعرُ بالعَزمِ، بعدم استحالةِ أيِّ أمرٍ، بالدعمِ،**

بالأمانِ... أشعرُ مع لينا أنّ بإمكاني أن أواجِهَ أيَّ صُعوبةٍ. والآن؟ هل سيتلاشى كلُّ هذا؟

أضعُ القلَمَ جانبًا ولا أعيدُ قِراءةَ ما كتبتُ كما أفعلُ عادة. أغلِقُ الدفترَ بسُرعة وكأنّي أخافُ على هذه الكلماتِ أن تهرُبَ منه. بعد وقتٍ قصيرٍ أسمَعُ عَوْدة أحمد، يتوجَّهُ إلى غُرفةِ الجلوسِ يتحدَثُ مع أبيه. لا أريدُ أن يَراني حزينًا فيَسأل عن السببِ، فأطفئ النورَ وأدَعي النومَ. لكنَّ النومَ لا يَزورُني هذه الليلة. لا في ساعاتِها الأولى، ولا في ساعاتِ الفَجر الأولى. أظنُّني أغفو قليلاً مع بِدايات الصباح.

37

لينا

أتّصِل بأنَس منذ الصباح لكنّه لا يَرُدُّ إلّا بعد عِدّة مُحاوَلات.

"ما بالكَ لا تُجيبُ على هاتفِك؟ سوف نتأخّرُ على المَوعِد. أنا وأمُّك في انتظارِك."

"عُذرًا لينا، نِفتُ متأخّرًا. سأهيّئ نفسي. لا تنتظراني. سأذهبُ مباشَرةً إلى هناك كي لا نتأخّر."

أصلُ مع تانت ليلى في وقتِ الموعدِ تمامًا، فنجدُ أمّي في انتظارِنا مع المحامِيَة وقد قدّمتْ لها كلَّ المُستندات اللازمة. تسألُ المحامِيَة تانت ليلى الكثيرَ من الأسئلة، عن ظُروفِ زواجِها، عن ردِّ فعلِها الأولِ على تَعنيفِه، عن عملِها السابق وما الأمرُ الحاسِمُ الذي جعلَها تتركُ العمل، عن عَلاقتِها بابنِها...

"هل حاولَ ابنُكِ، في أيّ وقتٍ، تقليدَ أبيه في التعنيفِ؟"

"لا، أبدًا، حبيبُ قلبي أنَس"، تقولُها وتبتسِم. "منذ صِغَره يراقِبُ تصرُّفاتِ أبيه معي برَهبة. لم يكنْ يُبدي أيَّ ردِّ فعلٍ قبل بُلوغ التاسعةِ أو العاشرة. حينَها، وبالرغم من كلِّ توجيهاتِ أبيه كي يتبعَ خُطاه في لعبِ دورِ الرجلِ القويّ الذي لا يبكي ولا يعطفُ، بقِيَ أنَس

قريبًا منّي، يُفَضِّل مُجالسَتي ورِفقَتي على قضاءِ الوقتِ مع أبيه. وحينَ كَبُر قليلاً، صارَ يحاوِلُ أن يَحميَني من تعنيفِ أبيه الجسَديّ. كم كنتُ أخافُ عليه. لكمْ تلقّى اللكَماتِ والصفَعاتِ في مُواجَهة أبيه للدفاعِ عنّي."

كلامُ أمِّ أنَس يجعلُني أكثرَ إعجابًا به. كان من المُمكِن أن يقلِّدَ أباه ويصبِحَ مُعنِّفًا هو الآخر، لكنّه لم يفعلْ. تأثيرُ أبيه كانَ أضعفَ من شُعوِره بالحقِّ والعدلِ. أشعُر اليومَ بأنّي أعرفُه أكثرَ من أيِّ وقت مضى.

يصلُ أنَس بعد أن تُنهِيَ أمُّه الحديثَ عنه، وخِلال تفكيري فيه. تقِفُ حين يدخُل، تغمُره وتقبِّلُه على جبينِه. ثمّ يصافِح المحامِيَةَ وأمّي ويجلِسُ بجانبي. عطرُه الذي صرتُ أتوقَّعُه عند اقترابِه منّي يتسرَّبُ إلى أنفي. هو ليس عطرًا قويًّا، بالعكس. هو هادئٌ ناعِمٌ، يشبِهُ شخصيَّتَه.

أنَس

أجلِسُ بجانِب لينا، وأنا أشعرُ بالأسفِ لما وصَلْنا إليه. أعرِفُ أنّي لطالَما شجَّعتُ أمّي على تركِ أبي، لكن في سرّي، أتمنّى لو تجري الأمورُ بشكلٍ أفضل. ليت الحلَّ يكون تَوْبةَ أبي وعودتَنا نحن الأربعةَ للعَيش تحت سقفٍ واحدٍ، بسلام. هل هذا كثيرٌ علينا؟

وكأنّ أمّي سمعَت أفكاري، أسمعُها تقاطِعُ المُحاميةَ: "ماذا لو لم أرفَعْ قضِيّةً ضِـدَّه؟"

سُكونٌ يُخيِّمُ على الغرفةِ عند وقْعِ كلامِ أمّي. الكلُّ هنا لمُساعدَتِها على التخلُّصِ من هذا الزواجِ المؤلِمِ، وهي لا تزالُ متعلِّقةً بشعْرةِ أمَلٍ تريدُ إنقاذَه.

أقولُ لمُساندةِ أمّي: "ماذا لو وَضَعنا له شروطًا لعَودتِها بدَل المُباشَرةِ بطلبِ الطلاقِ؟"

"كلُّ ما أريدُه هو الأمانُ. إنْ ضمِنتُ أنّه لن يَمَسّني بعد اليوم، أعودُ فورًا إلى بيتي."

"في هذه الحالِ يُمكِنُ إذًا للقاضي أن يُصدِرَ طلبَ حمايةٍ"، تقولُ المحامِيَةُ.

يروقُ هذا الحلُّ لأمّي، فتسألُ أكثر: "ماذا يعني ذلك بالضبط؟"

"أوّلًا يَصدُر قرارٌ بإخراجِ الزوجِ لفترةٍ مؤقّتةٍ من البيتِ. ثانيًا، يُمنَعُ زوجُكِ من التعرُّضِ لكِ بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ. ثالثًا، يُمنعُ من تحريضِ شخصٍ آخر على المسِّ بسلامتِكِ. وإنْ أخَلَّ بأيٍّ من هذه القراراتِ يَصدُر قرارٌ بسَجنِه."

توجَّهُ أمّي نظَرَها إليّ وكأنّها تبحَثُ عن مُوافقتي لهذا الخيار، بينما يبدو على وجهِها طيفُ ابتسامة. أبتَسِم بدوري: "نَفعلُ ما تُريدينَه يا ماما."

تنهَضُ من مكانِها وتتَّجِهُ نحو النافذةِ. تنظُر من خِلالها إلى زحمةِ الطريقِ وضَجيجِه ونحن ننتظِرُ إشارةً منها للقرارِ الذي ستتَّخِذُه. بعد صمتٍ بضعِ دقائق، تلتفِتُ وتقولُ: "حسنًا، هذا هو القرارُ الذي سآخذُه إذًا."

هذه الكلمةُ السحريّةُ ستُغيِّر مجرى أمورِنا جوهَريًّا. بعدها ببضعةِ أيّامٍ، يَصدُر قرارُ القاضي بمنعِ أبي من التواصُل مع أمّي لمُدّةِ شهرٍ، فنعودُ أنا وأمّي وأختي إلى بيتِنا، ولا عِلْمَ لي إلى أين يذهَبُ هو. لكنّنا في تلك الفترة نبقى على أعصابِنا غيرَ مُتأكّدين من أنّ أبي سيَمتثِلُ للقرار. كُلّما رنَّ الهاتفُ تنظُر أمّي إليّ وكأنّها تترجّاني أن أجيبَ، فربّما هو المتصلُ. لكنْ خِلال فترة الإبعادِ هذه لا يحاوِلُ التواصُلَ مع أيّ مِنّا ولا مرّة واحدة.

يومَ موعدِ عودتِه إلى البيت، لا يستخدِمُ مفاتيحَ البيت كي يدخُلَ. يَرِنُّ على الجَرَس. أفتحُ له. هذا أوّلُ لقاءٍ بعد مُواجهتِنا العنيفةِ في ذلك اليومِ المشؤومِ. يَمُدُّ

يدَه ليُصافِحَني. أتردَّد لِلَحظةٍ. أتمعَّنُ بعينَيه فأرى ما يوحي بالندمِ. أشعرُ بالشفقةِ تِجاهَه. لقد خَسِر الهيبةَ والرَّهبةَ التي كانت تُخيفُنا من زمنٍ غيرِ بعيدٍ. أصافِحُه. استِقبالُ أمَي له أفضَلُ مِن استقبالي. "أهلًا. كيفَ حالُكَ؟ الغداءُ جاهِزٌ."

39

لينا

"عندي شعورٌ بأنَّ هذه السنةَ مرَّتْ بسرعةٍ، لكنّي في الوقتِ ذاتِه أشعرُ بأنّ كثيرًا من الأمورِ الجَذريّةِ حصلتْ معنا"، أقولُ لأنَس خِلال مُكالَمةٍ هاتفيّةٍ نُجريها في ساعةٍ مُتأخِّرةٍ من الليلِ.

"كَمْ تَغيَّرَ طعمُ الحياةِ منذ أن صزتِ رفيقتي المُفَضّلة وحـ ...".

يتوقَّفُ أنَس عن الكلام.

"وماذا؟" أسألُ بابتسامةٍ خبيثةٍ لأنّي أعرِفُ بالضبطِ الكلمةَ التي كانتْ ستخرُجُ منه.

أتخيَّلُ احمِرارَ أذُنَيه وخدَّيه، أمرٌ يحصُل عندما يرتَبِك. أبادِرُ بالكلام:

"أحبُّكَ يا أنَس."

"لـ ... لـ ... لحظة"، أسمَعُه يُتمتِم.

أنتظِرُ بضعَ دقائقَ إلى أن يعودَ إلى الهاتف.

"أين ذهبتَ؟ هل ضايقتُك بكلامي؟"

40

أنَس

ما إن تتلَفَّظُ لينا بكلمة "أحِبُّكَ" حتّى أشعرَ بكلِّ مَسامَ بدَني تَنبض. أوّلَ مرّة تقولُ لي فتاةٌ "أحِبُّكَ". أنَسى أن أتنفَّس. أحتاجُ لدقيقةٍ. أستأذِنُها، أبعِدُ الهاتفَ عن أذني، وتلقائيًا يطفرُ دمعي. كان أبي يقولُ دومًا إنّ البكاءَ للفتياتِ. الرجالُ لا يبكونَ. أريدُ لو أقولُ له الآن "بكائي ليس ضعفًا. أبكي من غِبطتي. من شعورٍ عارمٍ يغمرُني. يُدفِئني."

أتمالكُ نفسي، أمسحُ دموعي وأعودُ إلى الهاتف. أكُحُّ لأخفي أثرَ بكائي وليستَوي صوتي مجدّدًا قبل أن أباشرَ الكلامَ: "واو..."

واو؟ ألم أجِد أفضلَ من هذا اللفظ للردِّ على صراحتِها؟ أحاولُ مجدّدًا:

"وأنا أحبُّكِ."

41

لينا

أزمتان قاسيتان واجهناهما أنا وأنَس، كلٌّ ضمنَ ظروفِ أسرتِه. في أزمتِنا خسزنا مالَ أبي وأملاكَه، لكنّنا ربخنا حريّتَنا وراحةَ بالِنا بقرارِنا العودةَ إلى فرنسا. وفي أزمةِ أنَس، كانتِ النتيجةُ أن تحسَّنَتِ الأمورُ بنحوٍ أسرعَ وأسلسَ ممّا كان يتوقّعُه الجميع. فأبوه تغيّرَ كثيرًا بعد عودةِ أمّه إلى البيتِ بشُروطِ القاضي. حين ناقشنا هذا التغيُّرَ الجذريّ أنا وأنَس، حلَلنا أنّ أباه صارَ يعلمُ أنّ أمّه مَحميّةٌ بالقانون الذي يسانِدُها والذي سيُجازيهِ بقسوةٍ إذا أخَلَّ بالاتّفاقِ. حتّى إنّ تانت ليلى عادَت إلى وظيفتِها السابقةِ، أمرٌ أخبرَتْه هي لأمّي عبر الهاتفِ قبل أن ينقلَه أنَس إليّ.

في الأسابيع التي تلي ذزوة الأزمتَين، ننشغلُ بالتحضيرات لسفرِنا القريب. لكن ذلك لا يحولُ دون لقاءاتي المتكرّرة بأنَس. فأنا كلّما وجدتُ أنّ أمّي لا تحتاجُ إليّ في شيء، أحدّدُ موعدًا معه ونلتقي. أحيانًا نتمشّى لساعات على كورنيش البحر، وأحيانًا نلتقي بأصدقائنا، أحمد وعماد ونسرين. حتّى نادية أختي تخرُج معنا من وقتٍ إلى آخر. الأحاديثُ بيني وبين أنَس لا تنتهي. نتكلّمُ عن طفولتِنا، حاضرِنا، أحلامِنا، ولا

يخلو الأمرُ من بعضِ الأوقات التي نشعرُ فيها بالحزنِ الشديدِ بسبب فراقِنا القريب.

أختارُ وأنَس أن يكون آخرُ لقاءٍ لنا في الموكّا. أصلُ بعدَه بقليل، فيقودُني عطرُه إلى المكان الذي اختارَه. آخر طاولة في زاوية المقهى، حيث الجوُّ أهدأ من باقي الأمكنة. لا نقولُ الكثيرَ في هذه الجلسة. يدُه تغمرُ يدي ويدي الحرّة تمسّدُ يدَه. عيونُنا تبوحُ بكلِّ ما فينا من حبٍّ ومن قلقِ الفراق وحزنِ الاشتياق الآتي. في عادتي لا أحبُّ هذه الدراميّة في العلاقات. فما زلنا صغارًا على كلِّ هذه الجِديّة... لكن بالرغم من ذلكَ، أشعرُ برهْبةِ اللحظةِ. نرشفُ الكابوتشينو مع القليلِ القليلِ من الكلام. وقبل انتهاءِ جلستِنا يناولُني كيسًا ورقيًّا أحضرَه معه.

"إنّها هديّة صغيرة، ذكرى منّي حتّى لا تنسيني."

"لا أحتاجُ إلى شيء كي أفكّر فيكَ"، أقولُ بغُنج فيبتَسِم.

هديّتُه تعني لي الكثير، هي سفينةٌ فرنسيّة صنعَها بنفسِه.

42

أنَس

اليومَ الجمعة، يومُ سفرِ لينا. أصرُّ على أن أذهبَ معها إلى المطارِ. وبما أنّ موعدَ الطائرة في السابعة صباحًا، عليَّ النهوضُ في الرابعةِ لأصلَ إلى بيتِها في الرابعةِ والنصف وإلى المطارِ قبل ساعتَين من موعدِ الإقلاع. تلك الليلةَ لا يزورُني النوم. أخشى أن أغفوَ فيفوتَني الموعدُ.

أرافِقُ لينا ونادية وتانت سلام إلى المطار في سيّارةِ أجرةٍ حجزتُها أمس. أتمنّى ألّا ينتهي الطريقُ بين البيتِ والمطارِ. في السيّارةِ أمتعةٌ كثيرةٌ وصمتٌ. الموقفُ صعبٌ. بعد قليلٍ سترحلُ لينا وسيكونُ بيننا آلافُ الكيلومتراتِ. ما يطمئنُني هو سهولةُ التواصلِ معها. فقد اتّفقنا على أن نتحدّثَ كلَّ مساءٍ عبر إحدى وسائلِ التواصلِ الكثيرةِ، الصوتيّةِ والبصريّةِ، على الكمبيوتر أو الهاتفِ. منذ أن صارتْ علاقتي بلينا قويّةً، صرتُ أكتبُ في دفتر يوميّاتي أقلَّ من السابق. هذا لا يقلقُني، بالعكس. فأنا سعيدٌ بوجودِ إنسانةٍ قريبةٍ إليّ بهذا الشكلِ، بإمكاني أن أشاركَها ما لم أكنْ أبوحُ به إلّا لدفاتِري. نصلُ إلى المطار، نتوادَعُ بغمرةٍ قويّة أضعُ فيها كلَّ حبّي لها. تبقى يدي بيدِها، ولا أتركُها إلّا بعد أن

تجتازَ مكتبَ الأمنِ العام. ألوِّحُ لها بيَدي وهي تفعلُ الشيءَ ذاته إلى أن تختفي بين الناس مع أمِّها وأختِها.

بعد الظهرِ، في صفِّ اليوغا، أشعرُ بفراغٍ في القاعة، مع أنّها مكتظّةٌ. المكانُ الذي اعتادَت لينا أن تأخذَه خلفي شغلتُه أخرى. أغمضُ عينَيّ، آخذُ نفَسًا عميقًا لكنّي لا أنجحُ في تركيزِ فِكري على الصفِّ، على اللحظةِ، على الأحاسيسِ الجسديّةِ الآنيّةِ كما تطلبُ المعلّمة. فِكري يتشتّتُ مع لينا. أتخيّلُها تصلُ إلى مطار شارل دوغول. تنتظرُ تسلّمَ حقيبتِها. أتخيّلُها مع أمِّها وأختِها يجذنَ صديقَهنّ فرانك وأسرتَه في انتظارِهنّ ليوصلهنّ إلى الشقّة المؤقّتة التي قالت لي لينا إنّه وجدَها لهنّ.

ينتهي الصفّ وأنا أعيدُ وأكرّرُ هذه المشاهدَ في ذِهني. ما إن أشغّلُ هاتفي حتّى يَطِنَّ مُعلِنًا تسلّمَ رسالة: **وصلْنا بسلام. اشتقتُ إليكَ.**

أسرعُ في تركِ المكان عودةً إلى البيت، مُتلهّفًا لمحادثَتي الأولى مع لينا كما اتّفقنا. محادثتُنا الأولى بين بيروت وباريس. أصلُ، أدفعُ أجرةَ الطريق وأشكرُ سائقَ السرفيس. أتّجِه إلى مبنانا. أحيّي العمَّ أبو عاصي بائعَ الخضار المشغولَ بإدخالِ صناديقِ البضاعةِ قبل إقفالِ المحَلّ كما يَفعلُ في هذه الساعة من كلِّ يوم، وأسلّمُ على الناطور مُعتزّ الجالسِ على كرسيِّه الخشبيّ وبيدِه هاتفُه النقّالُ يلعَبُ به كعادَتِه. المصعَد في أعلى طابق وليس عندي صبرُ انتظارِه. أصعَدُ الأدراجَ متعدّيًا درجتَين بدل الواحدة في كلّ خطوةٍ من شدّة حماستي،

مُستعجِلًا الوصولَ إلى حاسوبي. أمام بابِ شقّتِنا، أجفُل. ماذا لو؟ أضعُ أذني على البابِ كعادتي قبل فتحِه. أسمعُ أمي ترندحُ أغنيةً وأبي يتكلّمُ على الهاتف. أسمعُ صوتَ التلفزيون وضحكَ دارين العالي. أخمّنُ أنّها تشاهدُ برنامجًا كوميديًا. جلَبَةٌ قد تزعجُني وأنا أدردشُ مع لينا حتّى لو أقفلتُ بابَ غرفتي، لكنّي سعيدٌ بها. بيتٌ يضجُّ بأناسِه أفضلُ من بيتٍ صامتٍ ثقيلٍ. أبتسِمُ. أدفعُ بابَ بيتي وأدخلُ.